الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون



الملكة اللسانية
في مقدمة ابن خلدون

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف : ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف: ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص.ب: ٦٣١١ / ١١٣ تلكس: LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

د. ميشال زكريا
دكتور في الألسنية من جامعة باريس
استاذ الألسنية في كلّية الآداب
الجامعة اللبنانية

الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون

(دراسة ألسنية)

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

نبذة عن المؤلف

□ ولد في طرابلس ـ لبنان

□ تخرَّج من جامعة باريس ويحمل شهادة الدكتوراه في الألسنية .

□ باحث جامعي في قضايا الألسنية العربية .

□ يدرِّس مادة الألسنية في كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة اللبنانية .

□ صدر له :

1 ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) : المبادىء والاعلام ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت 1980 ، طبعة ثالثة 1985 .

2 ـ الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (1 ـ النظرية الألسنية) ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1982 ، طبعة ثانية 1985 .

3 ـ الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (2 ـ الجملة البسيطة) ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1983 ، طبعة ثانية 1985 .

4 ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) : قراءات تمهيدية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1984 ، طبعة ثانية 1986 .

5 ـ مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1984 ، طبعة ثانية 1986 .

6 ـ «Essai d'une Etude Générative de l'Arabe: Syntaxe. Beyrouth 1984.

□ قام بالأبحاث التالية (للمركز التربوي للبحوث والإنماء ـ بيروت)

ـ تحليل مقارن بين اللغة الفرنسية وبين اللغة العربية (مكتوب باللغة الفرنسية) .

ـ دراسة حروف الجر في اللغة الانكليزية ومقارنتها بحروف الجر في اللغة العربية . (مكتوب باللغة الانكليزية) .

□ اشترك في تأليف مقررات دور المعلمين (المركز التربوي للبحوث والإنماء ـ بيروت)

ـ نشاطات اللغة العربية (روضة) .

ـ تدريس اللغة العربية .

المقدمة

يقتصر البحث ، في هذا الكتاب ، على دراسة مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون من خلال إعادة قراءة مقدمته قراءة جديدة على ضوء علم الألسنية . ويهدف الى تسليط بعض الأضواء على نظرة ابن خلدون الى اللغة من حيث انها ملكة لسانية ، والى تبيان الآراء اللغوية المتطورة التي نجدها في الفصول التي تناول فيها المسائل المتعلقة باللغة .

ليس من شأن هذه الدراسة أن تبحث في الآراء اللغوية لابن خلدون بصورة عامة ، ولا أن تبحث في أصالة تفكيره اللغوي أو في الآراء الجديدة التي أتى بها في هذا المجال بالنسبة الى الفكر اللغوي العربي . كما ليس من شأنها ، بالتالي ، إظهار ابن خلدون في مظهر العالم اللغوي أو الرائد الألسني الذي حلّل قضايا اللغة ومسائلها كما يحلّلها الآن علم الألسنية . لأن ذلك ، في الواقع ، يُبعدنا عن الحقيقة الموضوعية في مجال تفهّم الاهتمامات الأساسية التي وجّهت كتاباته . بل تهدف هذه الدراسة الى تبيان أنّ ابن خلدون قد أتى ، خلال عرضه الموجز لما أسماه « بعلوم اللسان العربي » ، بآراء لغوية متعمقة ومتطورة يجدر بنا التوقّف عندها ملياً ، لنحللها ونقارن بينها وبين بعض الآراء المعمول بها ، حالياً ، في مجال علم الألسنية .

تتتبّع هذه الدراسة مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون وتركّز الاهتمام على بعض المسائل اللغوية التي هي ، في يقيننا ، متطورة وينبغي النظر فيها مجدّداً بغية الاستفادة منها في حقل الدراسات اللغوية المتعمقة . وهذه المسائل ، بالذات ، تثبت ، بصورة واضحة وجلية ، أنّ الجانب اللغوي في فكر ابن خلدون يرتدي

أهمية ملحوظة، مثله مثل الجانب الاجتماعي والسياسي . فإبن خلدون قد انفرد عن غيره بالنظرة الى اللغة من حيث انها ملكة لسانية . ومفهوم الملكة اللسانية ، كما يتوسّع فيه ابن خلدون ، مفهوم حيّ معاصر يقارب مفهوم الكفاية اللغوية الذي يركّز اهتمامه عليه الألسني الأميركي نوام تشومسكي في نظريته الألسنية التوليدية والتحويلية .

لذلك ترانا قصرنا البحث على إبراز مفهوم ابن خلدون للملكة اللسانية من خلال إبراز أهم الآراء التي شاءها معالم جديدة على طريق تحليل اللغة . وسعينا الى بيان مدى جدّتها ومبلغ صلاحيتها وفعاليتها من منظار علم اللغة الحديث وذلك من دون أن نسعى الى مناقشتها . وحتى ننتصف الحقيقة ونلتزم بالأصول العلمية ، لا بد من الإشارة إلى أننا لم نتناول الجانب اللغوي عامة عند ابن خلدون ، ولم نبحث في الآراء اللغوية التي وردت في مقدمته فيما إذا كانت آراء مأخوذة عن اللغويين العرب أم انها آراء جديدة توصّل اليها ابن خلدون في مجال تحليله للغة . فهذه المسألة لم نوليها ، في الحقيقة ، اهتمامنا ؛ بل اعتمدنا « المقدمة » لتوضيح نظرة ابن خلدون الى اللغة بهدف إظهار الآراء اللغوية المتطورة التي أقرّها وثبتها وأتى بها في مقدمته .

إنّ المنهجية التي اعتمدناها في بحثنا هذا ، منهجية جديدة قائمة على إعادة قراءة المقدمة قراءة جديدة نقدية متعمقة على ضوء علم الألسنية . وفي قراءتنا هذه، حاولنا تلمّس القضايا اللغوية المتطورة في « المقدمة » واضعين نصب أعيننا إمكانية إضفاء نظرة علمية متجددة على الآراء اللغوية الواردة في المقدمة ، وإظهارها من منطلق علمي حديث، بهدف ربط الفكر اللغوي العربي بالفكر الألسني العالمي . وقد عاهدنا نفسنا على القيام به من منطلق اختصاصنا الألسني وثقافتنا اللغوية العربية .

إنّ ربط الفكر اللغوي العربي بالفكر الألسني العالمي مسألة تطرح نفسها علينا حالياً . فمع بروز الألسنية كعلم حديث يحُلّل مسائل اللغة وفق منهجية علمية ثابتة ودقيقة ، نشأ نوعٌ جديد من الاهتمام بالتراث اللغوي . وهذا النهج الجديد يحاول العودة الى التراث اللغوي لإظهار الآراء المتطورة فيه والتي تلتقي مع الآراء الألسنية ، بهدف الإستفادة منها وإظهار استمرارية الفكر اللغوي . وفي هذا

الإطار ، تمّ وضع مؤلفات عديدة تُؤرخ للفكر اللغوي العالمي منذ بدء الكتابة الى عصرنا هذا الذي بالإمكان اعتباره عصر الألسنية .

من الأعمال التي ارتدّت الى التراث اللغوي لإظهار التقارب بين بعض جوانبه المهملة وبين المفاهيم الألسنية ، كتاب نوام تشومسكي « الألسنية الديكارتية »(2) . ففي هذا الكتاب أظهر تشومسكي التقارب الممكن ملاحظته بين بعض عناصر نظريته وبين بعض آراء المذهب الديكارتي المعروف باسم « قواعد بور رويال » . ومن الألسنيين الذين أرّخوا للفكر اللغوي قديماً وحديثاً ، من منطلق اهتماماتهم الألسنية نذكر « لوروا(3) ، ولبسشي(4) ، وموونان(5) ، وكريستيفا(6) وروبنز(7) » .

في إطار الاهتمامات الألسنية التي أشرنا إليها ، نلاحظ أوّل ما نلاحظه ، مع الأسف الشديد ، غياب الاهتمام بالفكر اللغوي العربي . ولئن تناول البعض مرحلة الحضارة العربية ، في تأريخهم للفكر اللغوي عامة ، فهم يتناولونها بإيجاز مفرط ويحللونها تحليلاً سطحياً لا يُظهر الفكر اللغوي العربي القديم على حقيقته(8) .

لسنا ، هنا ، في وارد التوسع في المؤلفات اللغوية العامة التي تناولت الفكر اللغوي العربي القديم . فهذه المسألة تحتاج الى تخصيص بحث خاص بها . إلا أننا نُشير الى الإهمال الذي حصل ولا يزال يحصل للنتاج اللغوي العربي القديم . وهذا الإهمال ، في رأينا ، ظلم طال التراث اللغوي العربي . من هنا حرصنا على ربط التراث اللغوي العربي الذي هو في نظرنا غني جدّاً ، بالفكر الألسني العالمي .

إنّ اللغويين العرب قد أوْلوا اللغة العربية أقصى اهتمامهم وقدّموا ، بالتالي ، الملاحظات المتعددة والقيِّمة حول قضايا اللغة . وأراؤهم هذه بالإمكان اعتبارها متطورة بالنسبة الى زمنهم . وبالإمكان ، لدى العودة الى مؤلفات القدامى ، ملاحظة المجهود الهائل الذي قام به الأوائل في مجال دراسة اللغة والعناية الدقيقة التي بذلوها في جمع أصول اللغة ولمّ شتاتها واستنباط أحكامها العامة . بل أكثر من ذلك بالإمكان ملاحظة المفاهيم المتطورة التي أتوا بها والتي بالإمكان مقارنتها ببعض المفاهيم الألسنية(9) .

كلما عدنا الى مؤلفات القدامى كلما ازداد ، عمقاً ، احساسنا بوجود آراء متطورة بالإمكان اعتبارها صالحة ومفيدة من المنظار الألسني. وهذه الآراء بعضها

ظاهر لا يحتاج الباحث الى جهد كبير لتبيانها والبعض الآخر بحاجة إلى إعمال البحث الدقيق لتبيانها .

إنّ الألسنية من حيث هي علم اللغة ليست ، في المقابل ، بعيدة كل البعد عن الفكر اللغوي العربي ، فالتراث اللغوي العربي ، كما قلنا ، قد أولى اللغة أكثر اهتماماته . وقد عُرف عن اللغويين الأوائل إلمامهم بعلم المنطق وعلم الرياضيات ، مما أضفى على منهجيتهم دقّة وموضوعية لا تبتعد كثيراً عن دقّة وموضوعية المنهجية الألسنية . فالخليل بن أحمد ، على سبيل المثال لا الحصر ، عالم في الرياضيات وعالم لغوي في نفس الوقت . وقد انطبعت تحاليله بمنهجية علمية واضحة وظاهرة .

لا بد من التساؤ ل ، والحالة هذه ، عن الأسباب التي أدّت الى غياب الفكر اللغوي العربي عن الاهتمامات التاريخية للفكر اللغوي عامة . في الواقع ، بمقدورنا رد هذه الظاهرة الى عدّة أسباب نذكر منها الأسباب التالية :

أ ـ جهل الألسنيين في الغرب للغة العربية ولتراثها اللغوي . ينجم عن ذلك عدم الاهتمام بالنتاج اللغوي العربي وعدم الاطلاع عليه .

ب ـ إهمال القرون الوسطى بصورة عامة . ومعلوم أنّ المرحلة العربية تقع زمنياً في القرون الوسطى .

ج ـ نزعة الغربيين الى تجاهل كل ما لا ينتمي الى الحضارة الغربية بصورة وثيقة .

د ـ إفتقار المجتمع العربي الى التخصص الألسني . وهذا الأمر يرتدي أهمية خاصة . وذلك لأنه لا يتم ، في يقيننا ، انقاذ كلّ ما يشكل قيماً لغوية علمية من الاهمال إلا من خلال إعمال البحث العلمي الرصين في مجال التراث اللغوي من منطلق ألسني حديث . فنزع الغبار عن التراث اللغوي ونبش القضايا المتطورة التي يزخر بها ، يكون فعّالاً عندما يتمّ في ضوء التقنيات والمباحث الألسنية .

في هذا الإطار الفكري العام بإمكان القارىء أن يفهم مغزى الحاحنا على إعادة قراءة التراث اللغوي العربي وتفسيره بهدف تفهمه وإحيائه وربطه بالفكر اللغوي عامة . وغني عن الذكر أنّ الإفادة من هذا النوع من الأبحاث ، إفادة مزدوجة . فمن ناحية الاهتمامات التراثية نقوم بتحديث الفكر اللغوي العربي والنهوض به الى واجهة اهتماماتنا اللغوية . أما من ناحية الاهتمامات الألسنية فإننا

نُغني الفكر اللغوي عامة من خلال مدّه بروافد عربية ونساعد على تعميق تفهمنا للألسنية عبر تحليلنا للمسائل اللغوية في التراث اللغوي العربي، كما أننا نؤمّن بُعداً تراثياً لألسنية عربية تهتم بقضايا لغتنا العربية وتحلّل مسائلها .

لكن أملنا وطيد في أن يكون هذا البحث الذي رغبنا فيه بأن نتناول مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون وما يشتمل عليه هذا المفهوم من مسائل وقضايا وآراء لغوية متطورة ، أملنا في أن يكون فاتحاً لتدقيقات علمية أخرى تخوض في تقييم نقدي صريح للنتاج اللغوي العربي.

في ضوء ذلك نود أن ينظر القارىء الى بحثنا هذا وقد أردناه فاتحة لأعمال أخرى سنتناول فيها بالبحث ، إن شاء الله ، ما أمكننا تناوله من نتاج الأوائل كل منهم على حدة بهدف إظهار القضايا المتطورة في الفكر اللغوي العربي وتحليل هذا الفكر بشكل متكامل ومتماسك .

واضح أن مجرَّد التفكير في وضع خطَّة عمل للإحاطة بالقضايا اللغوية المتطورة في التراث العربي وربطه بالتراث اللغوي العالمي من خلال دراسة أكبر عدد ممكن من اللغويين العرب يبدو أمراً فوق طاقة الفرد . لذلك لا بد من تضافر جهود الألسنيين العرب في هذا المجال .

ميشال زكريا
بيروت في 18 أيلول 1985

هوامش المقدمة

(1) لذلك لم نعتمد المراجع التي تتناول ابن خلدون ولم نرجع الى المصادر اللغوية العربية . بل اقتصر عملنا على قراءة « المقدمة » قراءة جديدة كما اقتصرت مراجعنا على المؤلفات الألسنية الأساسية

(2) Noam Chomsky (1966)

(3) M. Leroy (1963)

(4) G. C Lepschy (1966)

(5) G. Mounin (1967)

(6) J. Kristeva (1969

(7) R. H. Robins (1967)

(8) نذكر على سبيل المثال أنّ روبنز يخصص صفحتين من كتابه لاستعراض الفكر اللغوي العربي . (Robins 1967) صفحة101 -103 . كما أنّ كريستافا لا تخصص للفكر اللغوي العربي سوى خمس صفحات مع العلم أنها تشير الى أهمية هذا الفكر اللغوي في العصور الوسطى .

(9) تناولنا هذه المسألة في الفصل الأوّل من أطروحتنا حيث أشرنا الى بعض القضايا المتطورة في تراثنا اللغوي . وبإمكان القارىء العودة الى(Michel Zakaria (1974 . كما بإمكانه أيضاً العودة الى نهاد الموسى(1980) .

الفصل الأوّل

تعريف اللغة

1 ـ تعريف ابن خلدون للغة

لا بد لنا ، في بدء بحثنا هذا الّذي يتناول الملكة اللسانية في فكر ابن خلدون ، من أن نشير الى تعريفه للّغة :

« إعلم أنَّ اللغة ، في المتعارف عليه ، هي عبارة المتكلّم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشىء عن القصد بإفادة الكلام ، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان . وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها » (المقدمة صفحة 1056)[1] .

يتضمن هذا التعريف عدّة مسائل لا بد من التوسع فيها :

أولاً : « اللغة هي عبارة المتكلّم عن مقصوده » أي أنّ اللغة وسيلة يمتلكها متكلم اللغة ويُعبِّر بواسطتها عن آرائه ومتطلباته . فهي الوسيلة التي تُميِّز الانسان عن غيره من الكائنات . وتكمن أهميتها في كونها تتيح لمتكلمها إتمام عملية التواصل بينه وبين أفراد بيئته . وتيسِّر له التعبير عن آرائه وأحاسيسه وإيصالها للآخرين .

إنّ تعريف اللغة من حيث أنّها وسيلة التعبير الانساني تعريف يرد في أكثر من مكان في مقدمة ابن خلدون :

« كلّ منهم (أهل المغرب والأندلس والمشرق) متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة » (المقدمة صفحة 1079) .

فاللغة إذا وجدت بهدف التواصل ينتفع بها متكلمها في مجال الإبانة عما في

نفسه . فالأفكار لا تظهر إلى الوجود إلا عبر اللغة التي تحملها وتوصلها من متكلم الى مستمع :

« المتكلّم يقصد به (بالكلام المطبوع) أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة » (المقدمة ص1118) .

يتوسّـل الإنسان اللغة لاتمام عملية التواصل بينه وبين أفراد بيئته . وتقتضي عملية التواصل وجود متكلم فسامع لكلامه ودلالات تقوم اللغـة بنقلهـا بواسطـة الإشارات الصوتية . فالمتكلم يقصد عبر لغته إيصال أفكاره القائمة في ضميره إلى من يستمع اليه . فالأصوات اللغوية المتلاحقة التي تصدر عن المتكلم تحمل ما في ضميره من معانٍ ودلالات . وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون حين قال :

« إنّ اللغة إثبات أنّ اللفظ كذا لمعنى كذا . والفرق في غاية الظهور » (المقدمة صفحة 1064) .

ثانياً : « اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتها » .

يحدِّد ابن خلدون اللغة الانسانية بصورة كلية ، بأنها ميزة خاصة بالإنسان . ويُشير إلى أنّ ملكة اللغة تتجلّـى عند كل شعب لغة خاصـة به . إذ أنّ اللغـات الانسانية تتمايز في ما بينها . ويرد ابن خلدون هذا التمايز الى اختلاف الاصطلاحات بين أمة وأخرى(2) .

تُشير النظريات الألسنية بوضوح الى طابع اللغة الاصطلاحي . فاللغة وسيلة تعبير قائمة ، في بيئة معيَّـنة ، على عادة جماعية أو بتعبير آخر على اصطلاح معيَّـن . وهذا الطابع الاصطلاحي طبيعي إذ لا بد ، في الواقع ، من أن يتقبّـل متكلمو اللغة الاصطلاحات نفسها لكي يتم التواصل في ما بينهم ولكي تؤدِّي اللغة وظيفتها كأداة تؤمّـن هذا التواصل .

إنَّ الطبيعة الاصطـلاحية في اللغـة هي ، بالـذات ، التـي تتيح لمتكلميهـا التواصل عبر قناة تواصلية ثابتة بثبات الاصطلاح على الدلالات التـي تعبـر عنهـا الألفاظ في اللغة الواحدة :

« فالدلالة (هي) بحسب ما يُصطلح عليه أهل الملكة (اللسانية) . فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحَّـت الدلالـة . وإذا طابقـت

تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحَّت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك » (المقدمة صفحة 1126) .

تجدر بنا الإشارة ، هنا ، إلى أنّ اللغة ، من هذه الزاوية ، ليست نتيجة تقرير سياسي أو ثقافي التزمت به مجموعة افراد بيئة معينة ، بل هي كيان طبيعي . وليست ، بالتالي ، من وضع اناس معيّنين معروفين أم غير معروفين بل هي تستمد من عصور سابقة :

لقد اقترب ابن خلدون ، في بحثه في مجال علوم اللسان ، من هذه النظرة الى اللغة كاصطلاح قائم وضمني حين يذكر صراحة :

« وأعلم أنَّ النقل الذي تُثبت به اللغة انما هو النقل عن العرب . انهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني ، لا نقل انهم وضعوها لأنّه متعذّر وبعيد ولم يعرف لأحد منهم » . (المقدمة صفحة 1063) .

إذاً اللغة ليست من وضع أناس معينين إنما هي نتاج ثقافي قائم على اصطلاح ضمني يكمن مصدره خارج مجال إدراكنا المباشر وفي زمن بعيد لا تصل إليه قدرات استدلالنا[٣] .

ثالثاً : « وتلك العبارة فعل لساني ناشىء عن القصد بإفادة الكلام » أي أنَّ اللغة فعل انساني يقوم الانسان بتأديته عبر لسانه . وهذا الفعل نابع من إرادة فكرية هي القصد بإفادة الكلام . فاللغة الانسانية نشاط انساني مصدره الفكر الانساني وهي ، في نظر ابن خلدون ، ناجمة عن تصميم ذاتي . فالإنسان يستعمل اللغة للتعبير عن مواقفه من الظروف المحيطة به . فهي ، بالتالي ، عمل عقلي وفعل صنع يقوم به كل فرد بقدر ما يقصد استعمالها .

ولا بد لنا من أن نتوقّف ملياً عند قول ابن خلدون « اللغة فعل لساني » . فهذا الجانب من النظرة الى اللغة ، يرتدي حالياً أهمية بالغة في مجال الدراسات الألسنية . فمن منظار النظرة الى اللغة من حيث هي فعل لساني ، نلاحظ ، حالياً ، توجه بعض الألسنيين الى دراسة ما دُعي بالمجال المراسي Pragmatique حيث يولي الألسني اهتمامه الى مستوى ثالث في دراسة اللغة الى جانب مستوى الصوت والمعنى . وهذا المستوى الثالث هو مستوى الفعل الكلامي أو الفعل اللفظي .

فالعبارة اللسانية لا تُحدَّد فقط من خلال بنيتها الذاتية والمعاني المرتبطة بها ، بل هي تُحدَّد أيضاً عبر الفعل الحاصل من انتاج العبارة هذه . ويهتم الألسنيون بوصف هذا المجال المراسي . فيحاولون وضع الشروط والضوابط لاكتشاف الاصطلاحات التي تجعل من العبارة عبارة مقبولة أو بكلام آخر عبارة ملائمة ومُستحسنة في السياق التواصلي للكلام[4] .

لا يغفل ابن خلدون عن الإشارة الى أنّ الفعل اللساني فعل قصدي فيتطرَّق بالتالي إلى أنّ التكلم فعل قصدي نابع من تصميم الانسان على التواصل والتعبير عن ذاته « وناشىء عن القصد بإفادة الكلام » . ففي مقدورنا القول ، هنا ، إنَّ تعريفه للغة يتضمَّـن أيضاً مسألة أنّ اللغة فعل قصدي ناجم عن الإرادة الحرَّة للتكلم .

رابعاً : « فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان » . فاللغة التي هي نتاج ثقافي وفعل صنع تصير ملكة قائمة عند متكلمها . أي تصير مقدرة على التكلّـم بعد أن يكتسبها الإنسان فتستقيم في ذاته أداة تعبير وتواصل . ومفهوم الملكة اللسانية مفهوم قد طوّره ابن خلدون . فاللغة ، في نظره ، قائمة عند الانسان لأنه قد امتلك هذه الملكة اللسانية . فوراء المقدرة على التـكلّـم ، ملـكة لسانية قد اكتسبها الإنسان تُوجه ، بالذات ، عملية التكلّـم .

نستنتج مما سبق أنّ ابن خلدون قد أحاط في تحديده للغة بأهم المسائل الألسنية التي تتمحور حولها النظريات الألسنية الحديثة . فاللغة وسيلة تواصـل في خدمـة المتكلّـمُ يُعبِّـر بواسطتها عن آرائه ؛ كما هي فعل لساني وملكة لسانية وتقـوم على اصطلاح ضمني في المجتمع الذي يتكلمها .

لمزيد من التفهم للآراء اللغوية المتطورة التي وردت في مقدمة ابن خلدون والتي نحاول في بحثنا هذا إظهارهـا ، قد يكون من المفيد أن نتنـاول هنـا بعض التعريفات التي وضعها الألسنيون لتحديد اللغة[5] .

2 ـ تعريف الألسنيين للغة

يُحدِّد الألسني الفرنسي أندره مارتينه اللغة على النحو التالي :

« إن اللغة أداة تواصل تُحلَّل وفقها خبرة الإنسان ، بصورة مختلفة في كل تجمع انساني ، عبر وحدات تشتمل على محتوى دلالي وعلى عبارة

صوتية[6] يُشير مارتينه في تعريفه للّغة ، الى المسائل الألسنية التالية :

أ ـ اللغة وسيلة تواصل بين الأفراد .
ب ـ اللغة قائمة على وحدات صوتية تشتمل على دلالة .
ج ـ تختلف اللغات من مجتمع الى آخر .

هذه المسائل تضمنها تعريف ابن خلدون للغة الى جانب مسألتين لا يردان في تعريف مارتينه هما الفعل اللساني والملكة اللسانية . وهاتان المسألتان ترتديان أهمية قصوى في الألسنية . فمارتينه يُشدد في تعريفه ، فقط ، على وظيفة اللغة التواصلية :

« إنّ الإشارة الى اللغة كوسيلة أو كأداة تواصل تلفت الانتباه الى ما يميِّز اللغة عن مؤسسات أخرى . إنّ وظيفة هذه الأداة الأساسية (اللغة) هي وظيفة التواصل »[7] .

نجد النظرة الى اللغة كمؤسسة عند الألسني الفرنسي انطوان مايه :

« إنّ اللغة تنظيم متماسك مرتبط بوسائل التعبير المشترك بين مجموعة متكلمين ، ولا وجود لهذا التنظيم خارج الافراد الذين يتكلمون اللغة (أو يكتبونها) . مع ذلك لهذا التنظيم وجود مستقل عن كل منهم . ذلك لأنه يفرض نفسه عليهم . واقعه هو واقع مؤسسة اجتماعية متأصلة في الأفراد ولكن في الوقت نفسه مستقلة عن كل منهم . وهذا ما يتوافق بالذات مع التعريف الذي وضعه دركهايم في ما يتعلق بالأمر الاجتماعي »[8] .

نعلم أنه كان للعالم الاجتماعي اميل دركهايم بعض التأثير على رائد الألسنية السويسري فرديناند دي سوسور[9] ومن ثم على الألسني الفرنسي مايه الذي تابع دروس دي سوسور في معهد الدراسات العليا في جامعة السوربون في باريس . وتأثير دركهايم واضح في نظرة دي سوسور الى اللغة كمؤسسة . فاللغة ، في رأيه ، « نتاج اجتماعي لمقدرة التكلّم » و« مجموعة الاصطلاحات الضرورية » . ويبدو هذا الطابع الاجتماعي للغة واضحاً في تعابير كثيرة يلجأ إليها دي سوسور في كلامه على اللغة : « اللغة واقع مكتسب واصطلاحي » ، « اللغة مؤسسة اجتماعية » «الرابط الاجتماعي الذي يكوّن اللغة » .

أما الألسني الامريكي ادوار سابير فهو يُشير ، في تحديده للغة ، الى أنّ اللغة قائمة على رموز :

« إنّ اللغة وسيلة لا غريزية خاصة بالإنسان يستعملها لإيصال الأفكار والمشاعر والرغبات عبر رموز يؤديها بصورة اختيارية وقصدية » (10) .

فاللغة التي هي وسيلة التواصل الانسانية تتكوّن من رموز يعتمدها المتكلم لإيصال أفكاره . وتقوم بنقل المبادىء الفكرية والتخيلات والأحاسيس عبر سلسلة رموز تُستمد من أصواتها .

فاللغة ، من هذا المنظار ، متكونة من رموز يلجأ المتكلم اليها ويختار منها ما يتعادل مع الأفكار والمشاعر والرغبات التي يقصد إيصالها الى الآخرين .

إنّ تركيز الانتباه على أنّ اللغة قائمة على رموز نراه ، أيضاً ، عند الألسنيين بلوخ وترايجر في تعريفهما للغة على النحو التالي :

« إنّ اللغة تنظيم رموز صوتية كيفية يتعاون بواسطتها أفراد مجتمع معينّ » (11) .

فضلاً على أنّ اللغة وسيلة تواصل قائمة على الرموز الصوتية ، يحتوي هذا التعريف على مسألتين من أهم المسائل في الألسنية البنيانية .

أ ـ اللغة تنظيم . أي تتكوّن اللغة من كلّ منظّم من العناصر التي تعمل كمجموعة . ولا يكون لعناصر التنظيم ، إذا أخذت على حدة ، أيّة دلالة بحد ذاتها ؛ بل تقوم دلالتها فقط عندما ترتبط ببعضها وبالتنظيم ككل .

ب ـ الرموز طبيعتها كيفية؛ أي أنها غير معلّلة . فالرمز يرتكز على اصطلاح جماعي كلي يشير الى ما يرمز اليه . فهو لا يخضع ، بالتالي ، لأي قياس عقلي ، بل أنّ الرابط الذي يجمع بين الرمز وما يرمز اليه هو رابط كيفي .

تجدر بنا الإشارة ، هنا ، إلى أنّ أوّل من حدّد اللغة من منطلق انها تنظيم هو رائد الألسنية فردينان دي سوسور حين أشار إلى أنّ «اللغة هي تنظيم من الاشارات المغايرة» . كما أن دي سوسور قد شدّد على أنّ طبيعة الإشارة اللغوية كيفية .

وقد تبعه الألسنيون على رأيه هذا واعتمدوا هذين المفهومين كمبدأين من المبادىء الأساسية التي تقوم عليها الدراسة الألسنية .

نجد الجمع بين اللغة كوسيلة تواصل وبين اللغة كتنظيم من الإشارات ، في تعريف واحد للغة ، عند الكثير من الألسنيين. نذكر منهم على سبيل المثال الألسني « هال » .

يحدِّد « هال » اللغة على النحو التالي :

« اللغة هي المؤسسة التي يتواصل بواسطتها ويتفاعل البشر في ما بينهم بواسطة رموز شفهية ـ سمعية كيفية مستعملة بالعادة »(12).

يتضمن تعريف « هال » هذا أنّ اللغة وسيلة تواصل قائمة على رموز كيفية وهذه الرموز تنتقل من المتكلم الى المستمع فهي شفهية عند المتكلم وسمعية عند المستمع . إلا أننا نلاحظ أنّ « هال » يضيف في تعريفه للغة، مسألة أنّ اللغة عادة . والنظرة الى اللغة من حيث أنها عادة انسانية ، نظرة تبنّاها الألسنيون البنيانيون وخصوصاً الاميركيون ، بتأثير من النظرة السلوكية في علم النفس. نجد هذا التأثير بوضوح عند الألسني الأميركي ليونرد بلومفيلد الذي يعتبر أنّ عملية التكلّم تخضع الى تأثير المثير وإلى الإستجابة للمثير. ولا تختلف اللغة ، على العموم ، عن أنماط السلوك البشري الأخرى في رأي بلومفيلد. فهو يُعرِّف اللغة على النحو التالي :

« إنّ الكلام ـ الأصوات الخاص الذي يتلفظ به الانسان من خلال سيطرة مثير معين يختلف باختلاف المجموعات البشرية . فالبشر يتكلمون لغات متعددة . . . .

كل طفل يترعرع في مجموعة بشرية معينة يكتسب هذه العادات الكلامية والاستجابات في سنين حياته الأولى »(13) .

يرفض الألسني الاميركي نوام تشومسكي نظرة بلومفيلد الآلية هذه الى اللغة من حيث هي عادة كلامية قائمة من خلال الاستجابات للمثير . ويُؤكّد ، في المقابل ، أنّ الطفل يكتسب لغة البيئة التي يترعرع فيها بالإستناد الى مقدرته الفطرية على اكتساب اللغة .

يُسمِّي تشومسكي القدرة على انتاج جمل اللغة وتفهمها في عملية التكلّم بالكفاية اللغوية : Compétence (14) .

« يُشير مصطلح الكفاية اللغوية الى قدرة المتكلّم ـ المستمع المثالي على أن يجمع بين الأصوات اللغوية وبين المعاني ، في تناسق وثيق مع قواعد لغته » (15) .

« إنّ كل من يمتلك لغة معيَّنة قد اكتسب في ذاته وبصورة ما ، تنظيم قواعد تُحدِّد الشكل الصوتي للجملة ومحتواها الدلالي الخاص . فهذا الإنسان قد طوَّر في ذاته ما نسميه بالكفاية اللغوية » (16) .

بالإمكان ترجمة امتلاك اللغة على الصعيد المبدئي ، بالقدرة على انتاج الجمل وتفهمها ؛ أي بالقدرة على إعطاء الأصوات الملفوظة معنى مختصاً وعلى انتاج الأصوات هذه التي تحتوي على التفسير الدلالي الذي يراد التعبير عنه . وامتلاك اللغة يكون عبر ما يسميه ابن خلدون بالملكة اللسانية وما يسمّيه تشومسكي بالكفاية اللغوية . وفي ما يختص ببحثنا هذا بإمكاننا القول إنّ التسميتين تتعادلان وتشيران الى نفس المسمى وهو المقدرة على التكلم .

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ تشومسكي عندما يرغب بصياغة تعريف للغة ، يركِّز اهتمامه على المظهر الشكلي للغة . فهو يحدد اللغة كما يلي :

« من الآن فصاعداً نعتبر أن اللغة كناية عن مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل كل جملة منها طولها محدود ومكوَّنة من مجموعة متناهية من العناصر . وكل اللغات الطبيعية ، في شكليها المكتوب والمحكي ، تتوافق مع هذا التعريف . وذلك لأنّ كل لغة طبيعية تحتوي على عدد متناه من الفونامات (أو من الحروف الابجدية) وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع فونامات علماً بأنّ عدد الجمل غير متناه » (17) .

يركز تعريف تشومسكي للغة على خصائصها البنيانية التي بالامكان دراستها الدراسة العلمية . فهو لا يحلِّل اللغة من زاوية انها وسيلة التواصل أو التعبير بل من زاوية انها :

« مجموعة جمل كل جملة منها تحتوي على شكل فونتيكي وعلى تفسير

دلالي ذاتي يقترن به . وقواعد اللغة هي التنظيم الذي يُفصّل هذا التوافق بين الصوت والدلالة » (18) .

إنّ تنظيم القواعد هذا هو الذي يوليه الباحث جلّ اهتمامه.وهذا التنظيم قائم ضمن الكفاية اللغوية وهو الذي يتيح للانسان تكلم اللغة وتفهم جملها . فهو بنية اللغة وواقعها القائم إذ يقرن بين مادة اللغة الدلالية وبين مادتها الصوتية .

تتمحور نظرية تشومسكي وهي أحدث نظرية ألسنية حالياً وأكثرها انتشاراً ، حول الكفاية اللغوية لدى متكلّم اللغة . فمتكلم اللغة الذي ترعرع في بيئة معينة قد اكتسب كفاية لغوية في لغة البيئة أي قد اكتسب معرفة ضمنية بقواعد اللغة تتيح له انتاج جمل اللغة وتفهمها . فقواعد الكفاية اللغوية هي موضوع الدراسة الألسنية . وسنعود الى هذه المسألة في الفصول اللاحقة من بحثنا هذا .

3 ـ المسائل الواردة في تعريف اللغة

نستنتج من خلال عرضنا الموجز هذا لبعض التعريفات التي حدّد بها الألسنيون اللغة ، أنّ المسائل التي اعتُمدت في تحديد اللغة هي التالية : (19) .

1 ـ اللغة وسيلة تواصل أو مؤسسة اجتماعية للتواصل .
2 ـ اختلاف اللغات من مجتمع الى آخر .
3 ـ اللغة تنظيم رموز أو إشارات .
4 ـ اللغة عادة كلامية .
5 ـ اللغة مجموعة لا متناهية من الجمل .
6 ـ اللغة أصوات تحتوي على دلالات .
7 ـ اللغة فعل لساني
8 ـ اللغة ملكة لسانية .
9 ـ طابع اللغة اصطلاحي .
10 ـ التكلّم عملية قصدية .

مما لا شك فيه أنّ هذه المسائل التي وردت فيتعريفات الألسنيين للغة تكوّن مجتمعة الخصائص التي أثارت انتباه الألسنيين في ما يختص باللغة . وهي تكوّن المواضيع الأساسية في الدراسة الألسنية . ولا نحتاج الى وقت طويل لنتبيّن أنّ

تعريف ابن خلدون للغة ، بالمقارنة الى التعريفات الأخرى ، قد تضمَّن عدداً مهماً من المسائل الألسنية الأساسية . ويُشير المخطط التالي الى ذلك .

تعريف / المسائل الألسنية	إدوار سابير	فرديناد دي سوسور	انطوان مايه	ليونرد بلومفيلد	اندره مارتينه	هال	بلوخ وتراجر	نوام تشومسكي	ابن خلدون
وسيله تواصل، مؤسسه اجتماعيه	+	+	+		+	+	+		+
اختلاف اللغات من مجتمع الى اخر				+	+		+		+
تنظيم رموز أو إشارات	+	+	+			+	+		
عاده كلاميه				+		+			
مجموعة لا متناهية من الجمل								+	
أصوات تحتوي على دلالات		+		+	+			+	+
فعل لساني									+
ملكه لسانية								+	+
الطابع الاصطلاحي الكيفي							–		+
التكلم قصدي	+							+	+

نستخلص ، مما سبق ، أنّ ابن خلدون ، في معرض تعريفه باللغة ، قد أحاط بالمسائل الألسنية التالية :

1 ـ اللغة وسيلة تعبير وتواصل .

2 ـ تختلف اللغات من مجتمع الى آخر .

3 ـ اللغة أصوات تحتوي على دلالة .

4 ـ اللغة فعل لساني .

5 ـ اللغة ملكة لسانية .

6 ـ طابع اللغة اصطلاحي .

7 ـ التكلّم عملية قصدية .

هوامش الفصل الأوّل

(1) ـ ورد هذا التعريف في ابتداء فصل بعنوان علم النحو . وقد عرَّف ابن خلدون هنا اللغة قبل البدء بالكلام على علـم النحو . وواضح أنه لم يقصد التوسع في اللغة بقدر ما كان يقصد تقديم علم النحو الذي يعتني بضبط قواعد اللغة . وما يهمنا هنا هو هذا التعريف بالذات إذ أنّه يوضح نظرة ابن خلدون الى اللغة .

(2) لا بد من الإشارة هنا إلى أنّ ابن خلدون لم يحصر تعريفه للغة بلغة انسانية معيَّنة مثلاً اللغة العربية . بل عرّف اللغة كميزة انسانية عامة عند الانسان وتتحقق لغة خاصة عند كل شعب من الشعوب . فاللغة الانسانية ملكة خاصة بالإنسان وتتنوع بتنوع الشعوب والمجتمعات الانسانية .

(3) لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا(1980) صفحة181 وما بعد .

(4) يجب ألاّ يفهم من كلامنا هذا أنّ ابن خلدون أدرك المستوى المراسي في اللغة إلا أنه تحسس بحدسه العلمي أنّ اللغة فعل لساني .

(5) نورد هنا بعض التعريفات بهدف تبيان أهمية التعريف الذي قدّمه ابن خلدون للغة . ولا نهدف ، بالتالي ، الى التوسّع بهذه المسألة بقدر ما نهدف الى إظهار أهمية المسائل التي وردت في تعريف ابن خلـدون بالنسبـة الى الألسنية والألسنيين .

(6) أندريه مارتينه(1960) صفحة20 .

(7) أندريه مارتينه(1960) صفحة12 -13

(8) أنطوان مايه(1952) صفحة72 -73 .

(9) إنّ تأثير أفكار دركهايم على دي سوسور قد توسَّع فيه(1933) W. Doroszewski

(10) ادوارد سابير(1921) صفحة8 .

(11) بلوخ وتراجر(1942) صفحة5 .

(12) هال(1968) صفحة158

(13) ليونرد بلومفيلد(1935) صفحة29 .

(14) لقد ترجمنا مصطلحCompétence « الكفاية اللغوية » اعتقاداً منا بأنّ مصطلح كفاية يفي للدلالة على ما يشير إليه هذا المصطلح في إطار النظرية التوليدية والتحويلية . فكلمة كفاية تعني المقدرة . فالإنسان ذو كفاية لغوية أي قادر على تكلم اللغة . وقد اخترنا عبارة الكفاية اللغوية للمحافظة على التمييز بين مصطلحCompétence وبين مصطلحPerformance الذي ترجمناه بـ « الأداء الكلامي » . فحافظنا ، في الوقت نفسه ، على التمييز بين اللغة (الكفاية) وبين الكلام (الأداء) .
فيا يتعلَّـق بموضوع بحثنا هنا ، فنحن لا نبتعد عن الصواب إذا ترجمناCompétence بالملكة اللسانية . وذلك لأن الهدف في بحثنا هو تقريب فكر ابن خلدون اللغوي الى الآراء الألسنية الحديثة ؛ وذلك من دون الدخول بالتفاصيل المتعمقة لمصطلح الكفاية اللغوية في إطار النظرية الألسنية . إلاّ أننا ارتأينا الابقاء على العبارة « الكفاية اللغوية » لتسهيل عملية المقارنة ومنعاً لأن يختلط الأمر علينا فيا لو استعملنا نفس العبارة عند ابن خلدون وعند تشومسكي .

(15) نوام تشومسكي(1967) صفحة126

(16) نوام تشومسكي(1967) صفحة125

(17) نوام تشومسكي (1957) صفحة15

(18) نوام تشومسكي (1968) صفحة25

(19) لا نزعم هنا أننا قد استنفدنا المسائل اللغوية التي أثارت اهتمام الألسنيين في تعريفاتهم للغة . إنما بمقدورنا القول أننا عرضنا أهم المسائل التي استرعت انتباه الألسنيين في هذا المجال .

الفصل الثاني

الملكة اللسانية

قبل التوسع في مفهوم الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون ، لا بد لنا من أن نشير إلى أنّ ابن خلدون قد أوضح ، في معرض كلامه على الملكة اللسانية ، أنّ مفهوم الملكة هذه مفهوم خاص لا ينبغي الخلط بينه وبين مفهومين لغويين أساسيين هما صناعة العربية وقواعد اللغة ، وذلك بالرغم من أن هذين المفهومين يرتبطان بصلة وثيقة بمفهوم الملكة اللسانية .

يُميِّز ابن خلدون ، في الواقع ، بين الملكة اللسانية وبين صناعة العربية وبينها وبين قواعد اللغة .

1 ـ الملكة اللسانية غير صناعة العربية

إنّ الملكة اللسانية ، في نظر ابن خلدون تختلف عن صناعة العربية . فالملكة اللسانية مفهوم معيَّـن مغاير لمفهوم صناعة العربية كما يقول صراحة :

« من هنا يُعلم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة » (المقدمة صفحة 1083) .

فالملكة اللسانية حقيقة لغوية قائمة تختلف عن صناعة العربية بل أكثر من ذلك ، ليست صناعة العربية واجبة لتوفُّر الملكة اللسانية . إنما الملكة اللسانية تستقيم بصورة مستقلة عن صناعة العربية . ومع ذلك لا يغفل ابن خلدون عن الإشارة الى العلاقة القائمة بين الملكة اللسانية وبين صناعة العربية ، فيقول :

« ذلك أنّ صناعة العربية هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية وليس نفس كيفية » (المقدمة صفحة 1081) .

إذاً صناعة العربية ناجمة عن المعرفة بقوانين الملكة اللسانية.ومتكلم اللغة ينتج جمل لغته بالعودة الى قوانين الملكة اللسانية . وبالتالي فإن صناعة العربية أو إنتاج الكلام قائم على الملكة اللسانية والالتزام بقوانينها وليس ، بالتالي ، هو هو الملكة اللسانية .

واضح أنّ ابن خلدون يُمَيِّز بين الملكة اللسانية وبين صناعة العربية . وهذا التمييز يُقارب التمييز الذي تركِّز اهتمامها عليه النظرية التوليدية لمؤسسها نوام تشومسكي والقائم بين الكفاية اللغوية وبين الأداء الكلامي Performance. فالكفاية اللغوية من هذا المنظار ، حقيقة عقلية تقود عملية الأداء الكلامي . هي المعرفة الضمنية بالقواعد التي تنتج الجمل ؛ في حين أنّ الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني لهذه المعرفة الضمنية بالقواعد ، في عملية التكلم . فالأداء الكلامي يتم عبر اعتماد قواعد الكفاية اللغوية . ولقد اقترب ابن خلدون ، في نظرته الى الملكة اللسانية، من مفهوم الكفاية اللغوية . فالملكة اللسانية، في نظره ، هي ، في نهاية المطاف، المقدرة على صناعة العربية . إذ يكفي اللجوء الى قوانينها لكي يصوغ العربي الكلام العربي الصحيح . كما أنّ الكفاية اللغوية ، في النظرية الألسنية، هي المقدرة على تكلّم اللغة أو كتابتها . والجدير بالذكر أنّ ابن خلدون يركِّز على صناعة العربية أو كتابتها في حين أنّ النظرية التوليدية تركِّز ، بالذات ، على الأداء الكلامي بصورة عامة .

2 ـ الملكة اللسانية غير قواعد اللغة

إنّ الملكة اللسانية ، في رأي ابن خلدون ، تختلف أيضاً عن قوانين الإعراب . فيقول ابن خلدون ، بهذا الصدد :

> «وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها ، فإنَّ العلم بقوانين الاعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل» (المقدمة صفحة 1082) .

فالملكة اللسانية هي علم بالقوانين الاعرابية أي علم بالنحو أو بقواعد اللغة وليست هي نفس القوانين الاعرابية . بكلام آخر ، الملكة اللسانية هي المعرفة بقوانين الاعراب وليست قوانين الاعراب ذاتها . وهكذا نجد أنَّ ابن خلدون يلتزم

بتحديد علمي دقيق للموضوع الذي يتكلم عنه . فاللغة قبل كل شيء ملكة لسانية عند متكلمها . والملكة اللسانية هذه ليست القواعد التي تنصُّ الكتب اللغوية عليها ؛ إنما هي المعرفة القائمة عند متكلم اللغة ، بصورة أو بأخرى ، بالقواعد والقوانين التي تتيح له بالذات أن يتكلم لغته . كما أنها ليست صناعة العربية بل صناعة العربية تقوم على المعرفة بقوانين الملكة أي المعرفة بقواعد اللغة .

يستطرد ابن خلدون في هذا الموضوع فيقول :

« وكذلك تجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين ، إذا سُئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيراً ممن يُحسن هذه الملكة ويُجيد الفنَّين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية » . المقدمة صفحة (1082) .

فالملكة اللسانية إذاً هي المقدرة على استعمال اللغة الاستعمال الصحيح في شتَّى ظروف التكلُّم أو الكتابة وليست ، على كل حال ، الالمام المباشر والدقيق بقوانين الاعراب . فالإنسان الذي اكتسب الملكة اللسانية وأتقن التعبير في لغته ليس بالضرورة عالماً بأساليب الاعراب وبصناعة العربية .

يُميز ، إذاً ، ابن خلدون بين الملكة اللسانية وبين قواعد اللغة . وهذا التمييز نراه ، أيضاً ، بوضوح ، في النظرية التوليدية ، التي تُحدِّد الكفاية اللغوية من حيث هي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة .

فمتكلّم اللغة لا يمكنه أن يتكلّم اللغة التي هي تنظيم من الرموز قائم على قواعد تركيب ودلالات وأصوات لغوية ما لم يكن ملماً بهذه القواعد . ولا يعني ذلك أنّه ملم بصورة مباشرة بهذه القواعد . فهذه القواعد قد اكتسبها خلال نموه اللغوي الطبيعي وفي مراحل اكتسابه اللغة . فالباحث الألسني يحاول استقراء القواعد اللغوية التي تتيح لمتكلم اللغة انتاج جمل لغته والتي هي قائمة ، بصورة

ضمنية ، ضمن الكفاية اللغوية . في حين أنّ متكلم اللغة يتكلم اللغة من خلال معرفته الضمنية بقواعد اللغة؛ أي أنّ الكفاية اللغوية تقود عملية تكلم اللغة . وعملية التكلّم هذه تنسجم قدر المستطاع، في الواقع، مع قواعد الكفاية اللغوية أي قواعد اللغة .

مما سبق نستطيع أن نفهم التمييز الذي يضعه ابن خلدون بين إجادة التكلم وبين المعرفة المباشرة بقواعد اللغة الموضوعة في كتب اللغويين . فعملية التكلم تتم بصورة مستقلة عن قواعد اللغة المرسومة أو الموضوعة ، وتتم ، بالذات ، من خلال الملكة اللسانية . فالملكة اللسانية تفترض الالمام الضمني بقواعد اللغة في حين أن معرفة قوانين الاعراب لا تعني بالضرورة إمتلاك الملكة اللسانية» .

3 ـ تعريف الملكة اللسانية

بعد أن عرفنا أن الملكة اللسانية مفهوم يختلف عن مفهومي قواعد اللغة وصناعة الكتابة ، ننتقل الآن الى تحديد الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون . ولا بد لنا ، قبل ذلك ، من أن نُشير الى تعريفه للملكة بصورة عامة .

إنّ الملكة ، في نظر ابن خلدون ، صفة راسخة في النفس تُمكّن الانسان من القيام بالأعمال العائدة اليها . والانسان مهيأ لاكتساب الملكات . يقول ابن خلدون في هذا الصدد :

« إنّ الملكات صفات للنفس وألوان ، فلا تزدحم دفعة . ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها » (المقدمة صفحة 721) .

وتتجلّى الملكة في مجال معيّن عبر اتقان الإنسان لهذا المجال :

« وذلك أنّ الحذق في العلم والتفنُّن فيه والإستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله . وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً » (المقدمة صفحة 770) .

إنّ الملكة التي تتيح للإنسان القيام بشيء ما وإتقانه هي المعرفة بمبادىء هذا

الشيء وبقواعده . فالملكة إذاً هي الالمام بقوانين ومبادىء . وهي صفة في النفس .
وتبدو نظرة ابن خلدون الى الملكة من حيث انها صفة في النفس من خلال استعماله
الكلمات التي تنمّ عن الحالة في كلامه على الملكة :

أ ـ الملكة مستحكمة :

« واعلم أنّ فنّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ،
ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم ،
وأصلاً يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم . وكانت ملكته
مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها » (المقدمة صفحة 1099) .

ب ـ الملكة جيدة :

« وقد قدمنا انه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلُّم اللسان
العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلّته، تكون
جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ » (المقدمة صفحة 1112) .

ج ـ الملكة راسخة

« وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة ، بحيث يتبادر المعاني
الى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها ، شأن البديهي والجبلي ، زال
ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم ، أو خفَّ ، ولم يبق إلا معاناة
ما في المعاني من المباحث فقط » (المقدمة صفحة 1052) .

د ـ الملكة تامة

« وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغنٍ عن ذلك ، بتمام ملكته ،
وانه صار له فهم الأقوال من الخط ، والمعاني من الأقوال ، كالجبلّة
الراسخة ، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني (المقدمة صفحة
1054) .

هـ ـ الملكة مستقرة

« إعلم أنّ صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في
المعاني ، وإنما المعاني تبع لها وهي أصلٌ . فالصانع الذي يُحاول ملكة
الكلام في النظم والنثر ، إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام

العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتّى تستقرّ له الملكة في لسان مُضر » (المقدمة صفحة 1110) .

فالملكة، إذاً، صفة في النفس ينبغي أن تكون مستحكمة وجيدة وراسخة وتامة ومستقرة وذلك لكي يتاح للإنسان القيام بالأفعال العائدة اليها واتقانها .

في ما يختص بموضوع بحثنا فاللغة قبل كل شيء ملكة كلامية أو ملكة في اللسان كما يُطيب لابن خلدون قوله ، إذ يكرّر الاشارة الى ذلك في أكثر من موضع في مقدمته :

« وقد تقدَّم لنا أنّ اللغة ملكة في اللسان (المقدمة صفحة 1053) .

« واعلم أنّ اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان » (المقدمة صفحة 1071) .

وهذه الملكةُ تكتسب :

« إلاّ أنّ اللغات لما كانت ملكات كما مرّ كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات » (المقدمة صفحة 1080) .

« ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر » (المقدمة صفحة 1081) .

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ الملكة اللسانية في لغة معيَّنة ، تتحصّل ، في رأي ابن خلدون ، عند من يترعرع في بيئة معيَّنة تتكلّم هذه اللغة .

« فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام أهل جيله ، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ؛ فيلقنها أولاً ، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك . ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلّم واستعماله يتكرّر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم .

هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل الى جيل وتعلّمها العجم والأطفال » (المقدمة صفحة 1071) .

وفي مكان آخر يقول ابن خلدون :

« واعلم أنّ الأذواق كلها في معرفة البلاغة انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعمالها لها ومخاطبته بين أجيالها ، حتى يحصّل ملكتها كما قلنا ، في اللغة العربية » (المقدمة صفحة 1168) .

يذكر ابن خلدون أن الملكة اللسانية هي أساساً في لغة المنشأ حيث يترعرع الانسان . فهي ، بالتالي أن في لغة الانسان الأم. ويصعب على الانسان اكتساب ملكة لسانية تامة وراسخة مضافة الى ملكته اللسانية في لغة البيئة التي ترعرع فيها :

« فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة ، صار مقصراً في اللغة العربية ، لما قدّمناه ، من أنّ الملكة اذا تقدمت في صناعة بمحلّ ، فقلّ أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى ، وهو ظاهر » . (المقدمة صفحة 1053) .

بل أكثر من ذلك يستحيل على الانسان اكتساب ملكة لسانية ثانية في مفهوم ابن خلدون للملكة اللسانية : [2]

« ما قدّمناه من أنّ الملكة اذا سبقتها ملكة أخرى في المحلّ ، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة» (المقدمة صفحة 1088) .

تقتصر الملكة اللسانية إذاً على اللغة الواحدة لغة الأم أي لغة المجتمع الذي يولد الانسان فيه ويترعرع . ولا تختص ، قط ، بالجنس ولا بالعرق . بل تتكوّن عند الطفل خلال نموه في المجتمع الذي يتكلمها . وقد أشار الى ذلك ابن خلدون حين لاحظ أنّ بمقدور اطفال العجم الصغار اكتساب اللغة العربية عندما يترعرعون في مجتمع عربي وذلك قبل أن يكتسبوا لغتهم الأم :

« إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها الى العربية ، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم ، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم ، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية » (المقدمة صفحة 1053) .

بالإمكان تلخيص تعريف ابن خلدون للملكة اللسانية على النحو التالي :

إنَّ كل انسان نشأ وترعرع في بيئة تتكلّم لغة معينة قد اكتسب ملكة لسانية في هذه اللغة . والملكة اللسانية هي صفة في النفس راسخة ومستقرة . وهي المقدرة على استعمال اللغة من خلال المعرفة الضمنية بقواعد اللغة وقوانين صناعة الكتابة . وتقتضي دراسة اللغة دراسة قوانين الملكة اللسانية .

عودة الى النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية تُظهر لنا تحديداً متشابهاً للملكة اللسانية . إذ تُسمّي النظرية القدرة على انتاج الجمل وتفهمها في عملية تكلم اللغة، بالكفاية اللغوية . وهذه الكفاية اللغوية قد انطبع الانسان عليها منذ طفولته وخلال مراحل اكتسابه للّغة . وهي ملكة لا شعورية تُجسِّد العملية الآنية التي يؤديها متكلم اللغة بهدف صياغة جمله ؛ وذلك طبقاً لتنظيم القواعد الضمنية الذي يربط بين المعاني والأصوات . وتقتضي الدراسة الألسنية دراسة قواعد الكفاية اللغوية[3] .

4 ـ احوال الملكة اللسانية

إنَّ الملكة اللسانية ككل صفة انسانية عرضة لأحداث تُؤثر فيها. وقد توسَّع ابن خلدون في التغيُّر الممكن حصوله في الملكة اللسانية خلال مسار اللغة وحياتها في المجتمع . ونحاول ، لمزيد من الإفادة ، تتبع آراء ابن خلدون في هذا المجال .

أ ـ فساد الملكة اللسانية

إن الملكة اللسانية قد تفسد في مجتمع معيَّن وبتأثير من عوامل غير لغوية :

« ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم . وسبب فسادها أنّ الناشىء من الجيل ، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبِّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب أيضاً ، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكةً وكانت ناقصة عن الأولى . وهذا معنى فساد اللسان العربي » . (المقدمة صفحة 1072) .

يرد ابن خلدون فساد اللسان العربي إلى فساد الملكة بسبب تعرض متكلميها إلى أساليب كلامية مغايرة :

« فلمّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك ، الذي كان في

أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعرّبين من العجم، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي اليها مما يغايرها ، لجنوحها اليه باعتياد السمع » . (المقدمة صفحة 1056 -1057) .

إذاً قد تفسد الملكة اللسانية بتأثير من تعرُّض المتكلم للغات اخرى . فمن جيل إلى آخر وبحكم دخول المتعربين المجتمع العربي الإسلامي ، بدأت الملكة اللسانية عند العرب تفسد قياساً الى لغة مضر ؛ وذلك بما ألقى اليها السمع من الكلام المخالف لكلام العرب .

ب ـ إمتزاج الملكات

قد تبتعد الملكة اللسانية أكثر فأكثر عن الملكة الأساسية إثر التفاعل مع لغات أخرى . أكثر من ذلك قد تمتزج الملكات فتتكوّن ملكة جديدة حاصلة من امتزاج ملكتين أو أكثر :

« وأما انها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل ، فلأنَّ البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجم . فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد ، لأن الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه . وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم . فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى » (المقدمة صفحة 1079) .

من هذا المنظار نفهم التبدلات الطارئة على اللغة الواحدة خلال الأحداث التاريخية المهمة وامتداد نفوذ اللغة الى مناطق شاسعة تتكلم اللغات المختلفة . فاللغة العربية ، عبر انتشارها في البلدان التي دخلت تحت الحكم العربي الإسلامي ، قد تفاعلت مع اللغات المحلية . نشأ عن هذا الاختلاط ملكة لسانية أخذت بشكل أو بآخر من اللغات المحلية .

ج ـ تغيُّر الملكة اللسانية

ينجم عن فساد الملكة وامتزاجها بملكات أخرى تغير يحصل للملكة اللسانية :

« ولم يفقد من أحوال اللسان المدوّن إلا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط ، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الاعراب ، وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر ، كما فسدت بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب . وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أوّلاً فانقلب لغة أخرى » (المقدمة صفحة 1074 -1075) .

يلاحظ ابن خلدون أنّ العناية بالملكة اللسانية قد تساعد على المحافظة عليها من الفساد والامتزاج بالملكات الأخرى . مما يحافظ على اللغة ويُبقي الملكة اللسانية على الشكل التي كانت عليه عند الأوائل . فالملكة اللسانية من حيث هي صفة في الذات ، بالإمكان تغذيتها وإغنائها .

« وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع ، تكون جودة الاستعمال من بعده ، ثم إجادة الملكة من بعدهما . فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ، ترتقي الملكة الحاصلة لأنّ الطبع إنما ينسج على منوالها ، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها . وذلك لأنّ النفس ، وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع ، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات . واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج » (المقدمة صفحة 1112) .

مما سبق ، نلاحظ اهتمام ابن خلدون بالملكة اللسانية وبأحوالها . فهو يلاحظ امكانية تغير الملكة وفسادها وامتزاج أكثر من ملكة في ملكة جديدة . فيحلل هذه المسائل تحليلاً دقيقاً يُظهر في ما يظهره أهمية مفهوم الملكة اللسانية في تفكيره . وتحليله هذا جزء من تحليله لمظاهر المجتمع والعمران بهدف فهم قوانينها وتطورها وعوامل رقيها وفسادها مما يعرف بنظريته الاجتماعية المتكاملة .

هوامش الفصل الثاني

(1) في الواقع يسعى الباحث الألسني الى استقراء قواعد الملكة اللسانية التي تتيح لمتكلّم اللغة تكلّم لغته . ويكون عمل الألسني الالمام بصورة مباشرة بالقواعد التي يلمّ بها المتكلم بصورة ضمنية . لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا(1982) الفصل الخامس .

(2) سنتوسّع في مسائل اكتساب الملكة اللسانية في الفصل الخامس . وقد أشرنا ، هنا ، الى هذه المسألة بهدف تحديد الملكة اللسانية من حيث هي ملكة يكتسبها كل من يترعرع في بيئة تتكلّم لغتها .

(3) لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا(1980) صفحة45 وما بعد .

الفصل الثالث

الملكة اللسانية موضوع البحث اللغوي

لا يحتاج قارىء مقدمة ابن خلدون الى وقت طويل لكي يلاحظ أنَّ مفهوم الملكة ، في حد ذاته ، مفهوم متأصّل في فكر ابن خلدون الاجتماعي وفي نظرته الى اللغة . فالملكة اللسانية تتكوّن حقيقة قائمة تُضفي على اللغة كيانها . وكون ملكة اللغة ميزة انسانية تختص بالجنس الانساني من دون غيره من الكائنات ، لا بد لنا من التوقّف عندها وتحليلها . لذلك هي موضوع جدير بالاهتمام العلمي . وهذا ما أدركه ابن خلدون حين أكّد :

« ليست اللغات وملكاتها مجاناً » (المقدمة صفحة 1075) .

فاللغة ، إذاً في يقين ابن خلدون ، موضوع جدير بالدراسة ، وواضح أن دراستها تقوم من خلال دراسة الملكة اللسانية . وتركيز اهتمامنا على كلام ابن خلدون هذا من شأنه ، كما سوف نرى ، أن يكشف لنا جوانب مهمة من تفكير ابن خلدون في مجال اللغة . كما أنّ من شأنه ، أيضاً ، أن يُتيح لنا إظهار مدى تحسّس ابن خلدون لمسألة مهمة تطرح في مجال الدراسة اللغوية . نعني بها مسألة : هل اللغة موضوع قابل للتحليل العلمي القائم على أسس ثابتة وما هي ظواهر اللغة التي بالإمكان تحليلها على نحو متماسك ودقيق وشامل ؟

1 ـ اللغة موضوع قابل للتحليل العلمي

إنّ مسألة هل اللغة موضوع بالإمكان تحليله التحليل العلمي مسألة تُثار ، حالياً ، في مجال الألسنية . وما لفت انتباه الألسنيين الى هذه المسألة هو الاعتقاد بأنه لا يكفي أن نستعمل ، في مجال تحليل اللغة ، الأدوات والوسائل والأساليب العلمية الدقيقة المستمدة من الرياضيات أو علم المنطق الحديث لكي نُقر بوجود مجال علمي

يتناول اللغة وندعوه بالألسنية أو علم اللغة الحديث . فهذه الوسائل العلمية التي نتبيَّنها في الكتابات الألسنية لا تكوِّن ، في حد ذاتها ، الدليل الواضح على تشكُّل علم يبحث في اللغة وقضاياها البالغة التعقيد . فالمسألة هنا ليست في تحديد الوسائل الرياضية التي تعتمدها الألسنية ؛ بل هي في إمكانية تشكّل الألسنية كعلم تجريبي يبحث في موضوع معين هو اللغة . وهذه المسألة تطرح أكثر من تساؤ ل . وما يهمنا ، هنا ، هو السؤ ال الأساسي التالي : هل اللغة هي موضوع عتيد لعلم معيّن؟ وذلك لأننا لا نستطيع أن نضع علماً يبحث في اللغة ما لم تكن اللغة في ذاتها ، خاضعة للموضوعية .

بإمكاننا من منظار النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية ، إعطاء إجابة مقبولة عن هذا السؤ ال . يكفي لذلك أن نذكّر القارىء بإحدى الفرضيات الأساسية في النظرية التوليدية وهي التالية : إنّ كل إنسان سوي نشأ وترعرع في بيئة معينة قد اكتسب لغة هذه البيئة . نقول إنه قد اكتسب كفاية لغوية تتيح له أن ينتج عدداً لا متناهياً من جمل لغته . فعملية تكلّم اللغة إذاً ترتد الى هذه الكفاية اللغوية التي هي المعرفة الضمنية لدى متكلم اللغة بقواعد لغته والتي تقود عملية انتاج العدد اللامتناهي من جمل لغته . فاللغة نحددها ، من هذا المنطلق ، من خلال الكفاية اللغوية .

إنّ المسألة التي تطرح نفسها ، هنا ، هي في أنّ الكفاية اللغوية أي معرفة متكلم اللغة ، بصورة ضمنية ، بقواعد تركيب الكلام وتنسيق الكلمات وتوافقها في السياق الكلامي هي ، في الظاهر ، غير محسوسة وغير خاضعة مباشرة للتجربة العلمية . ولكن هل تعني ملاحظتنا هذه أنّ اللغة غير قابلة للتحليل العلمي . في الحقيقة بالإمكان دراسة اللغة من خلال ما ينتجه الإنسان من جملها . وذلك لأنّ اللغة ، على كل حال ، لا تقوم من غير وجود الانسان الذي يتكلمها وهي تعكس ، بالتالي ، عند استعمالها ظواهر قواعدية ونفسية واجتماعية متنوعة . ومع ذلك تبقى اللغة الواحدة تنظيماً من الرموز مشتركاً بين جميع متكلّميها يتواصلون عبره بصورة طبيعية . فالمسألة العلمية ، هنا ، هي في تحديد الكفاية اللغوية وفق الظواهر القواعدية والنفسية والإجتماعية العائدة اليها . فالعلم ، بصورة عامة ، هو الذي يكوِّن مواضيعه . وموضوع الألسنية أي علم اللغة هو الكفاية اللغوية في أبعادها التي ذكرناها : القواعد الكلامية والظواهر النفسية والاجتماعية للكلام .

مما سبق يتبيَّن لنا أهمية قول ابن خلدون « ليست اللغات وملكاتها مجَّاناً » . فاللغة ، في نظره ، موضوع قابل للتحليل وذلك من خلال تحليل الملكة اللسانية بالذات . ويقارب مفهوم ابن خلدون للملكة اللسانية مفهومنا لما نسمّيه بالكفاية اللغوية كما سبق وأشرنا اليه . على أنّ ما ينبغي التوقف عنده والتأمل فيه بهدف إظهار اصالة التفكير اللغوي عند ابن خلدون ، هو أنّ هذا المفكر العربي قد أدرك بحسه العلمي ، أنّ موضوع علم اللغة هو الملكة اللسانية ، وأنّ اللغة موضوع قابل للتحليل العلمي . كما أنه قد أفرد قسماً مهمّاً من مقدمته تكلّم فيه على مسائل اللغة والمسائل المرتبطة بها تحت عنوان « علوم اللسان العربي » . ويتمحور هذا القسم حول الملكة اللسانية مما يُظهر لنا بوضوح ، أنّه قد أدرك ، من خلال بحثه في مجال اللغة ، بُعداً أساسياً من أبعاد الألسنية هو البعد الذي أشرنا اليه والمتعلِّق بالكفاية اللغوية [2] .

لا ندَّعي ، هنا ، أنّ ابن خلدون قد أحاط بمجمل النظريات الألسنية أو انه قد سبق غيره من العلماء في طرح موضوع اللغة طرحاً جديداً مركّزاً وقائماً على الأسس العلمية في تحليل اللغة . بل حسبه انه قد أدرك بحسه العلمي ، بعض المفاهيم والمبادىء الألسنية . وما علينا عمله الآن ، هو العودة الى مقدمته نستدل منها على نظرته الى اللغة ، ونفسرِّها في ضوء علم الألسنية ، ونلمّ شتات تفكيره اللغوي لإظهار طريقة معالجته لمسألة الملكة اللسانية . ففي يقيننا انه وعى ظواهر الملكة اللسانية التي بالإمكان تحليلها وانه توقّف ملياً عند الظواهر القواعدية والاجتماعية والنفسية .

قبل أن ننتقل الى تتبّع الظواهر القواعدية والاجتماعية والنفسية للملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون ، لا بد لنا من أن نتناول المنهجية التي اتبعها ابن خلدون في تحليله لقضايا اللغة .

2 ـ منهجية التحليل اللغوي

يتّبع ابن خلدون في تحليله لمسائل اللغة المنهجية نفسها التي يتبعها في دراسة قضايا التاريخ والعمران البشري . ومنهجيته هذه جعلت منه ، في رأي الكثيرين ، رائد علم الاجتماع . ونحاول ، في ما يلي ، تبيان هذه المنهجية في مجال تكلمه على اللغة .

أ ـ النهج الوصفي التفسيري

يشير ابن خلدون ، في معرض كلامه على فنّ التاريخ ، أن كتابة التاريخ تتطلب وصف الأحداث وتحليلها التحليل العلمي الصائب . يقول في هذا الصدد :

« أما بعد فإنّ فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ؛ وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجُهّال ، إذ **هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأُوَل** ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتُطرق بها الأندية إذ غصّها الاحتفال ، وتؤدّي الينا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال ، واتّسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال . **وفي باطنه نظرٌ وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيقٌ ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميقٌ . فهو لذلك أصيل في الحكمة عريقٌ وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق** » . (المقدمة صفحة 2 و3) .

إنّ فن التاريخ ، في نظر ابن خلدون ، هو ، في الظاهر ، وصف للدول وقيامها وأخبارها وتبدّل أحوالها والأحداث التي تتناوب عليها . وفي باطنه « نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها » بصورة دقيقة وعميقة . ومن هذا المنطلق ، يكون فنّ التاريخ جديراً بأن يُعتبر علماً قائماً .

من هنا نتوقع ان تكون المنهجية التي يعتمدها ابن خلدون في كتاباته منهجية تتّسم بالطابع الوصفي والتفسيري في الوقت نفسه . وهذا ما نلاحظه في الواقع إذ يتبيّن لنا أنّ ابن خلدون يعتمد ، الى حدٍّ كبير ، في كتاباته ، المنهجية الوصفية التي تتيح له وصف الوقائع وتبويبها وترتيبها . فيقوم بلحظ أكبر عدد ممكن من المعطيات التي تدخل في إطار دراسته مبيّناً العلاقات القائمة في ما بينها . وهذا الوصفُ يحدِّد القضايا التي يتناولها ويُظهرها في أبواب متلاحقة .

إلاّ أنّ ابن خلدون لا يكتفي بوصف الأحداث والوقائع والمعطيات المثيرة للاهتمام فقط بل يتخطّى ذلك باتجاه تفسير هذه المسائل والتحقق منها واستخراج المبادىء التي تقوم عليها مبيّناً الأسباب والعلل والكيفيّات التي أدّت الى حصول ما

يحصل والتي هي وراء الأشياء الظاهرة تقودها وتسيرها[1] .

إنّ منهجية ابن خلدون في البحث ، إذاً ، منهجية وصفية تفسيرية . وما يهمنا الإشارة اليه هنا ، هو أنّ النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية تعتمد ، أيضاً ، منهجية وصفية تفسيرية في مجال تحليل مسائل اللغة .

في الواقع ، تقتضي المنهجية الوصفية التفسيرية ، المعتمدة في ظل النظرية الألسنية لحظ المعطيات المعدَّة للدراسة وتصنيفها وفق ترتيب معيَّن وبهدف تبيان الصلات القائمة في ما بينها كمرحلة أولى لتحديد الموضوعات . وتتبعها مرحلة تنظيرية يقوم الباحث خلالها بوضع النظريات والافتراضات التفسيرية والتعميات المثيرة للاهتمام . وذلك بهدف تفسير المادة التي يدرسها والوصول الى قواعدها ومبادئها بصورة متكاملة . وواضح أنّ المنهجية الوصفية التفسيرية المعتمدة في ظل النظرية الألسنية التوليدية ، تُضفي على الدراسة الألسنية الطابع العلمي الدقيق وتجعلنا نتفهم قضايا اللغة ومسائلها بصورة عميقة وشاملة .

نأخذ ، في ما يلي وعلى سبيل المثال ، نصاً من نصوص مقدمة ابن خلدون ونحاول اظهار المنهجية التي يتبعها .

« إعلم أنّ عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليست بلغة مضر القديمة ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد . فأما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بَعُدَ عن صناعة أهل النحو لحناً . وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم . فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما ، وكلّ منهم متوصّل بلغته الى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد .

أما انها أبعد عن اللسان الأوّل من لغة هذا الجيل ، فلأنّ البعد عن اللسان ، إنما هو بمخالطة العجم . فمن خالط العجم أكثر كانت لغته

عن ذلك اللسان الأصلي أبعد ، لأنّ الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه . وهذه الملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم . فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه ، يبعدون عن الملكة الأولى . . . . » (المقدمة صفحة 1078 و1079) .

نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه من الفصل الثامن والأربعون : « في أنّ لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر » . واضح في هذا النص أنّ المقطع الأوّل [اعلم أنّ عرف التخاطب . . . . وهي عن لغة مضر أبعد] مقطع وصفي . فإبن خلدون في معرض كلامه على لغة التخاطب في الأمصار يتحسس ظاهرة معيّنة هي أنّ اللغة هذه مغايرة للغة مضر وللغة أهل جيله.يصف هذه الظاهرة بدقة ويتوسّع فيها فيلاحظ أنها لغة قائمة بذاتها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة أهل جيله . كما يُلاحظ أنها عن لغة مضر أبعد .

بعد التحسس بهذه الظاهرة اللغوية الحضارية ووصفها والتوسع فيها ، يحاول ابن خلدون أن يضع بعض التفسيرات لتفسير هذه الظاهرة . فلغة التخاطب لغة قائمة بنفسها لأنّ ذلك ظاهر لمن يسمعها أو يتكلمها . ثم يأتي بالأدلّة المتنوعة التي تدعم رأيه :

أ ـ ما نلاحظه من لحن هو الدليل على تغاير هذه اللغة وتمايزها . ومردّه الى أنّ أصول تكلمها تختلف عن صناعة أهل النحو الذين ثبّتوا قواعد لغة مضر .

ب ـ ينجم عن اختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم اختلاف في اللغة التي يتكلمها كل بلد وهذا دليل آخر على تغاير لغة الأمصار .

بعد الاتيان بهذين الدليلين لإقرار التفسير الذي قدمه ابن خلدون ، يُخضع تفسيره للتجربة ليتأكّد من ملاءمة هذا التفسير للمعطيات اللغوية في عصره . فيتناول لغة كل مصر من الأمصار ليتأكّد من تغايرها وتمايزها . فيلاحظ أنّ لغة أهل المشرق مباينة للغة أهل المغرب ولغة الأندلس مباينة للغة أهل المشرق وأهل المغرب .

بعد التأكد من ملاءمة هذا التفسير يعود ويدعمه بدليل آخر :

كل إنسان من أهل الأمصار بإمكانه أن يُعبِّر عن ذاته بلغة أهلها . وبعدها يستنتج من تحليله قاعدة عامة :

معنى اللسان واللغة أنّ كل انسان يتوصل بواسطة لغته الى الإبانة عما في نفسه وتأدية مقصوده . كما أنه يُثبت أنّ فقدان الاعراب لا يؤثر في مجال التواصل .

وبعد أن أتى ابن خلدون بالأدلة التي تُفسر تغاير لغة الأمصار وتمايزها ، نراه يتابع تحليله فيفسرّ ابتعاد هذه اللغة عن لغة مضر ويُظهر أسبابه : فالبعد عن اللسان الأوّل (لغة مضر) عائد الى مخالطة العجم . فبقدر ما يخالط المرء العجم ، بقدر ما يبتعد عن لغة مضر . ويتناول مسألتين : مسألة حصول الملكة عبر عملية تعلُّم معيَّنة . ومسألة التداخل بين ملكتين لسانيتين عند المرء أو في المجتمع الواحد مما ينشأ عنه ملكة ممتزجة في الملكتين تبتعد عن الملكة الأولى وعن ملكة العجم في نفس الوقت .

بإمكاننا القول الآن إن ابن خلدون يعتمد منهجية وصفية تفسيرية علمية تبدو بوضوح من خلال النص الذي حلّلناه على سبيل المثال. ونهجه هذا لا يختلف بكثير عن المنهجية المعتمدة في ظل النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية(4) .

ب ـ علم المنطق والتحليل اللغوي

بقي أن نشير إلى أنّ ابن خلدون يرفض ، في الواقع ، ظاهرة الاعتماد المطلق على قوانين المنطق والاستناد اليها في تحليل قضايا اللغة . يقول ابن خلدون في هذا الصدد :

« فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته » (المقدمة صفحة 1084) .

نلاحظ أنّ ابن خلدون قد أدرك عبر حدسه العلمي ، أن التعامل مع اللغة لا ينبغي أن ينطلق من المجالات الانسانية الأخرى كالمنطق والجدل العقلي . إذ أنّ الاسترسال في اللجوء الى قضايا المنطق وإسقاط مسائله على قضايا اللغة ، يُبعد الباحث في مجال اللغة ، عن الموضوعية وعن حقيقة اللغة والملكة اللسانية .

لا بد لنا ، هنا ، من التوقّف عند عبارة « وبعدت عن مناحي اللسان وملكته » فهذه العبارة تُثير فينا إعجاباً قوياً بابن خلدون . فنحن كألسنيين لن نأتي

بتعبير أفضل للإشارة الى ابتعاد الدراسات اللغوية عن اللغة كواقع قائم بذاته . كما أنَّ هذه العبارة تذكرنا بعبارة دي سوسور الشهيرة « يجب دراسة اللغة لذاتها وبذاتها »[5] .

إنّ مسألة العلاقة بين علم المنطق وعلم اللغة لا تزال الى أيامنا موضوع جدل . فالألسنية التوليدية والتحويلية إذ تتوسَّع في هذه المسألة وتُبدي بعض التحفظات ؛ إلا أنها تقف الموقف نفسه الذي وقفه ابن خلدون من هذه المسألة . يقول تشومسكي في المعنى نفسه :

« بالتأكيد ليس بإمكاننا الاستغناء عن اللجوء الى المنطق لصياغة النظريات إن في مجال الألسنية أم في أي مجال آخر ، إلا أنّ هذا الأمر لا يجعلنا ندرك نوعية التنظيم الذي يكوِّن مادة الألسنية ولا طريقة تحليلها . فلا هذا الأمر ولا الأمر الآخر المسلّم به من حيث أن البحث في مجال المنطق قد أدّى الى معرفة مفاهيم بديهية حول استعمال اللغة ، يُبرهنان ، بأي حال من الأحوال ، أنّ دراسة خصائص اللغات الطبيعية (أو الدلالية) تقتدي بدراسة خصائص المنطق واللغات الاصطناعية الشكلية أو الدلالية »[6] .

لا ينكر تشومسكي أنّ الألسنية تتعامل مع علم المنطق ولكن تعاملها هذا يتم فقط من خلال استعمالها قضاياه على الصعيد المنهجي وفقاً لمتطلبات بناء النظرية الألسنية ولا يكوِّن المنطق ، في حد ذاته ، موضوع الدراسات الألسنية وذلك لأنّه يبعد الدراسة الألسنية عن دراسة موضوعها الأساسي والمتمثل في دراسة الكفاية اللغوية والتنظيم اللغوي الذي يكتسبه الانسان والذي يستعمله في أدائه الكلامي[7] .

إنّ المنهجية الألسنية اتخذت منحى دراسة اللغة لذاتها ومن منطلق ذاتي أي تُحلل الألسنية اللغة عبر خصائصها ومميزاتها الذاتية ومن حيث أنها بنية قائمة توصف على هذا الأساس . وتعمد الألسنية ، بالتالي ، إلى بناء مصطلحاتها والى تحديد مفاهيمها معتمدة المنهجية العلمية الواضحة التي تتوسَّل اقامة الفرضيات الملائمة والفعَّالة عبر الملاحظات المحدَّدة والتي تفسِّر القضايا اللغوية .

نلاحظ ، في مقابل ذلك ، أنّ ابن خلدون يرفض ، مثله مثل الألسنيين ، الابتعاد عن « مناحي اللسان وملكته » في الدراسات اللغوية وهو يلفت نظرنا الى أنّ اللغة ملكة لسانية قبل كل شيء . وتقتضي دراسة اللغة ، من هذا القبيل ، دراسة الملكة اللسانية بالذات ومن منطلق ذاتي .

يجدر بنا التذكير ، هنا ، بأن الهدف من بحثنا هذا ليس المقارنة التفصيلية بين النظرية الألسنية وبين التحليل اللغوي في مقدمة ابن خلدون بقدر ما هو الإشارة الى أنّ التساؤلات والمسائل التي أثارها ابن خلدون في نظرته الى اللغة ، وتلك التي تثيرها النظرية الألسنية ، هي متشابهة ولا تزال تطرح الى الآن . فإبن خلدون يبدو لنا في مقدمته ، صائب النظرة ونافذ البصيرة ، ينظر الى اللغة من منظار علمي ويُحللها من خلال دراسة الملكة اللسانية . فاللغة في يقينه لا تختلف عن المواضيع الاجتماعية الأخرى من حيث انها تقوم على قوانين الملكة اللسانية لذلك لا بد للّغوي من تحليل هذه القوانين .

بعد أن أوضحنا أنّ ابن خلدون يعتمد المنهجية الوصفية التفسيرية في البحث العلمي وينظر الى الملكة اللسانية من حيث انها المقدرة على تكلّم اللغة فيعتبر ، ضمناً ، انها موضوع الدراسة وانها قابلة للتحليل العلمي ، أصبحنا في وضع يُتيح لنا أن ننتقل الى تحليل الظواهر القواعدية والنفسية والاجتماعية العائدة الى الملكة اللسانية كما تبدو لنا في مقدمة ابن خلدون .

هوامش الفصل الثالث

1) لا نبالغ اذا استنتجنا من خلال تأكيد ابن خلدون « ليست اللغات وملكاتها مجاناً » إنّ ابن خلدون ينظر الى اللغة وبخاصة الى ملكة اللغة نظرة الباحث المتأمل لهذه الظاهرة الإنسانية المدهشة والمعقـدة . من هنـا إحساسنـا العميق بأنّ ابن خلدون قد أدرك بحدسه العلمي النافذ أنّ اللغة موضوع جديد بالبحث العلمي .

(2) لمزيد من التوسع في مفهوم الكفاية اللغوية انظر ميشال زكريا (1982) الفصل الثاني .

(2) إنّ اعتماد المنهجية الوصفية التفسيرية لا بد منه في مجال النشاط العلمي التنظيري إذ ليس بالإمكان وضع النظريات ما لم يتناول الباحث القضايا عبر منهجية وصفية تفسيرية . من هنا نفهم الاتجاه المسلّـم به من حيث اعتبار ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع . وذلك لأنّ ابن خلدون وضع النظريات المتماسكة حول العمران البشري .

(4) لا بد من الإشارة ، هنا ، الى أنّ النص الذي أوردناه بهدف تبيان منهجية ابن خلدون المعتمدة لم نختاره من بين نصوص ابن خلدون بل صادف وقوعنا عليه عندما هممنا بإظهار منهجية ابن خلدون الوصفية التفسيرية .

(5) لا نخفي على القارىء شعورنا ، بالنسبة لهذه العبارة ، بأننا أمام ألسني يؤكّـد على مبدأ ألسني أساسي هو عدم الابتعاد عن مناحي اللغة في دراسة اللغة .

(6) نوام تشومسكي (1975) صفحة 83 .

(7) إنه لأمر مسلم به حالياً أنّ الألسنية تلجأ الى معايير لغوية ثابتة والى مصطلحات ومفاهيم ذاتية مما ثبّت استقلالية الألسنية بالنسبة الى المجالات الانسانية الأخرى . وهذا ما يدفع الألسنيين الى رفض الاقتداء بالدراسات المنطقية في مجال البحث الألسني .

الفصل الرابع

الظواهر القواعدية العائدة الى الملكة اللسانية

1 ـ علم النحو وقوانين الملكة اللسانية

إهتم ابن خلدون بالظواهر القواعدية العائدة الى الملكة اللسانية وفي يقينه أنّ علم النحو يعالج قوانين الملكة اللسانية . وذلك ظاهر في كلامه التالي :

« وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطَّردة ، شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع . ثم رأووا تغيّر الدلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته اعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم ، فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة ، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو » (المقدمة صفحة 1057) .

إذاً يرتبط وضع قوانين اللغة وقواعدها ، في رأي ابن خلدون ، باهتمام أهل العلوم بالمحافظة على الملكة اللسانية عند العرب . فالخوف من فساد الملكة اللسانية مع مرور الزمن بحيث لا تعود الأجيال اللاحقة تتفهم القرآن والحديث ، دفعهم إلى استقراء القواعد من خلال تحليل الكلام العربي ووضع المبادىء العامة والقوانين التي تقوم عليها الملكة اللسانية والتي تتيح للعرب تكلم اللغة العربية وتفهمها على نحو صحيح ومعادل للملكة اللسانية الأولى أيام الفتح العربي الاسلامي . ويلاحظ ابن خلدون أنّ القوانين المستقرأة والمستنبطة تستخدم للقياس عليها وتصنيف عناصر

الكلام بحيث يتم وضع قواعد تشمل كل أنواع الكلام . وقد لاحظ أهل العلم من العرب «تغيّـر الدلالة بتغيّـر حركات الكلمات» فاصطلحوا على تسمية هذه الظاهرة في اللغة العـربية إعراباً . فاستقـرؤ وا مواقع الرفـع والنصـب وعلّـلـوا الاعـراب باستخراج العوامل الموجبة لتغيُّـر الحركات في أواخر الكلمات . وقد دوّنوا القواعد المستنبطة في ما دعوه بعلم النحو .

نستخلص ، من نظرة ابن خلدون هذه الى الموجبات لوضع علم النحو ، أنَّ علم النحو هدف الى وصف الملكة اللسانية وتفسير كيفياتها وقضاياها ؛ وذلك بهدف صيانتها والمحافظة عليها . فالإلمام بالملكة اللسانية وتعليمها للراغبين في تكلم اللغة العربية يتطلب تدوين قواعدها . من هنا نفهم اهتمام أهل العلم باستقراء قوانـين الملكة اللسانية .

لم يغفل ابن خلدون عن الإشارة الى أنّ قواعد الملكة اللسانية يجب أن تُضبط للحفاظ على الملكة اللسانية الأصيلة عند العرب ، وذلك لاهتمامات دينية أساسية . من هنا يفهم ابن خلدون سعي الخلافة الاسلامية على استقراء قواعد هذه الملكة :

« وأوّل من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ، يقال بإشارة علي رضي الله عنه ، لأنّـه رأى تغيّـر الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة » (المقدمة صفحة 1057) .

فاهتمام أهل العلم بوضع قواعد الملكة اللسانية ناشيء إذاً عن ملاحظة التغيّـر الحاصل في الملكة اللسانية . وما يهمنا الإشارة اليه هنا أنّ ، في رأي ابن خلدون ، بقدر ما يتم استنباط القواعد بقدر ما تتم المعرفة المباشرة بقوانين الملكة اللسانية . إلاّ أنّ ابن خلدون يلاحظ أنّ القواعد التـي استنبطهـا علماء اللغـة ليسـت بالتمام كل القواعد القائمة ضمن الملكة اللسانية . فالقواعد المستنبطـة هذه لا تتعـدّى كونهـا القواعد التي توصّـل اليها النحاة في وصفهم الكلام العربي وتفسيره » . فهي تُفيد علماً بذلك اللسان » ولكنها لا تستنفد بصورة شاملة قوانين الملكة اللسـانية :

« وهذه الملكة كما تقدَّم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرّره على السمع والتفطّن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان . فإنّ هذه القوانين إنما تُفيد

علماً بذلك اللسان ولا تُفيد حصول الملكة بالفعل في محلّـها » (المقدمة صفحة 1086) .

إنّ القواعد هذه تساعد في حفظ الملكة اللسانية ولكنها ليست حصراً قوانين هذه الملكة . فإبن خلدون ، بحدسه العلمي ، يعي ضرورة البحث في قواعد الملكة اللسانية التي تتيح لمتكلم اللغة صياغة جمل لغته على نحوٍ اصولي . ومسألة استنباط القواعد القائمة ضمن ملكة المتكلم اللسانية ، هي ، بالذات ، المسألة الأساسية في النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية .

تنطلق النظرية الألسنية من المسلّـمة التالية : إنّ كل إنسان ترعرع في بيئـة معينة قد اكتسب كفاية لغوية في لغة بيئته فهو يستطيع أن يُعبِّـر ، في كل لحظة ، بهذه اللغة باتباعه قواعد معيّـنة . وهذه القواعد قائمة بصورة ضمنية في كفايته اللغوية وهي التي تقوده في عملية تعبيره .ومن هذا المنطلق تقتضي دراسة اللغـة، بطبيعـة الحال ، دراسة هذه القواعد التي تتيح للانسان تكلّم اللغة وتفهمها . فهذه القواعد تكوِّن ، بالذات ، بنية اللغة وواقعها القائم ؛ إذ تقرن بـين مادة اللغـة الـدلالية الذهنية وبين مادتها الصوتية .

إنّ قواعد الكفاية اللغوية هي قواعد علمية تصف عملية التكلُّـم وتُفَسِّـرها . فهي تُفسر واقع اللغة وآلية التكلم عند الانسان . وهي قائمة ، بصورة ضمنية ، في الكفاية اللغوية لدى متكلم اللغة . وعلى الألسني العمل على اكتشافها والإلمام بها بصورة مباشرة .

2 ـ الحدس اللغوي

يلجأ الألسني ، في دراسته لقواعد الكفاية اللغوية ، الى الحـدس اللغـوي العائد الى متكلم اللغة والذي هو مقدرته على الحكم بأصولية الجمل بصورة بديهية . فمتكلم اللغة قادر على أن ينتج جمل لغته وأن يتفهمها وأن يحكم بأنّ جملة ما هي جملة أصولية في لغته أم هي غير أصولية . وهذا الحكم بأصولية الجمل يساعد الألسني على اكتشاف قواعد اللغة . فالجملة هي أصولية حين تتوافق والقواعد الضـمنية التـي يطبقها متكلم اللغة بصورة لا شعورية والكامنة ضمن كفايته اللغوية . وهي غير أصولية إذا انحرفت عن المبادىء التي تُحدد الأصولية في اللغة أي إذا انحرفت عن

القواعد الضمنية هذه . واللجوء الى الحدس اللغوي عند متكلم اللغة يُقدِّم للألسني في كل حين مجموعة الجمل الأصولية وغير الأصولية التي من خلالها يسعى الألسني الى اكتشاف قواعد اللغة ، وذلك لأنّ القواعد هذه هي التي تحدد الأصولية بالنسبة الى الجمل هذه .

أدرك ابن خلدون بالضبط أهمية الحدس اللغوي حين يقول :

« وإذا عرض عليه الكلام ، حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّـه . وعلم أنّه ليس من كلام العرب الذي مارس كلامهم . وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك ، كما تصنع أهـل القوانين النحوية والبيانية ، فإنّ ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء . وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب ، حتى يصير كواحد منهم » (المقدمة صفحة 1086) .

فبإمكان متكلم اللغة إذاً الحـكم على كلام ما من حيث أنـه ليس من كلام العرب.وهذا الحكم وجداني وعائد الى الملكة اللسانية والى المعرفة الضمنية بقواعد تلك الملكة . فالمتكلم لديه حدس لغوي نابع من ملكته اللسانية فيحكم بواسطته على جملة ما إذا كانت من جمل لغته الأصولية أم لا . وحكمه هذا ناجم عن معرفته اللاشعورية بقواعد ملكته اللسانية فيختلف،بالتالي ، كما يقول ابن خلدون ، عن الحكم الذي بإمكان أهل النحو والبيان القيام به في ما يتعلّـق بالجمـل العـربية . فحكمهم ذلك عائد الى معرفة مباشرة بالقوانين المستقرأة في مجال دراستهم اللغة ، والتي في نظرهم هي قواعد اللغة . وواضح بالمقابل أنّ مقدرة متكلـم اللغـة على الحكم بأصولية الجمل هي مقدرة وجدانية عائدة الى ملكة لسانية مكتسبة بصـورة طبيعية من خلال الترعرع في بيئة عربية وممارسة الكلام العربي .

« فالمتكلّـم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى الهيئة المفيدة لذلك ، على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب ، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب ، وان سمع تركيباً غير

جار على ذلك المنحى ، مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكرٍ بل بغير فكر ، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة » (المقدمة صفحة 1085) .

يفهم من كلام ابن خلدون هذا ، أنّ متكلم اللغة ، من خلال حصوله على الملكة اللسانية، يحكم على التراكيب العربية أي الجمل العربية ، بالسليقة وعلى نحو غير شعوري من دون أن يُعمل فكره فيها .

وبالامكان اللجوء الى حدسه اللغوي للتوصل الى القواعد الضمنية والقوانين العائدة بصورة ضمنية الى الملكة اللسانية .

من هذا المنطلق بالذات لا نستبعد ، في حال اعتماد منهجية علمية للدراسة اللغوية وفي حال الأخذ بالتطور الحاصل في مجال الألسنية ، اتجاه الباحث نحو دراسة اللغة من خلال تحليل مجموعة الجمل التي يقرّها حدس المتكلم ، والتي هي ، في الواقع ، الانعكاس للملكة اللسانية العائدة الى المتكلّم . فالملكة اللسانية تُدرس ، من منطلق علمي ، من خلال دراسة الجمل التي تنتجها . ودراسة الملكة هذه ترتدي الأهمية الأساسية البالغة في مجال الدراسات الألسنية والانسانية وذلك لأن« اللغات وملكاتها ليست مجاناً » .

بعد أن بيّنا مدى اهتمام ابن خلدون بالمظاهر القواعدية العائدة الى الملكة اللسانية ، لا بد لنا من أن نُشير ، هنا ، الى بعض الآراء اللغوية المتطورة عند ابن خلدون في مجال المظاهر القواعدية هذه ، والتي تُظهر أنّ نظرته الى القضايا اللغوية نظرة متطورة ورائدة بالنسبة الى العصر الذي كتب فيه .

3 ـ اللغة واقع يتطور

تميّز الألسنية بين الدراسة اللغوية التأريخية وبين الدراسة اللغوية التعاصرية . فاللغة تخضع لعوامل الزمان والتطور فتقوم الدراسة التأريخية بدراسة الظواهر اللغوية في عصر تاريخي مبكر وبدراسة تغيراتها خلال تعاقب الأزمنة والعصور ؛ في حين تولي الدراسة التعاصرية اهتمامها بدراسة الأحداث اللغوية المعاصرة التي تكوّن مرآة صادقة ينعكس فيها جوهر اللغة وشكلها وطبيعتها ، وتسعى من خلالها الى وصف التنظيم اللغوي وتحليله كواقع قائم حالي . من هذا المنطلق تركّز الألسنية اهتماماتها على استقلالية الحالة الراهنة للغة عن كل ما يتعلّق

بنشأتها وتطورها وعلى ضرورة النظر الى اللغة كحقيقة حالية قائمة بذاتها يتكلمها أهل الجيل الحالي وعلى ضرورة دراستها في واقعها المعاصر الراهن .

تجدر بنا الإشارة ، هنا ، إلى أنّ اللغة تكاد تنطوي في كل حين على تنظيم قائم وعلى تطوّر تاريخي . بل هي ، في كل آن ، واقع حالي ونتاج من الماضي في الوقت نفسه . ولكن بالرغم من التلاحم الوطيد بين حالتي اللغة ، فبالإمكان التمييز بين التنظيم اللغوي وبين تاريخه ، بين واقعه الراهن وبين حالته الماضية .

أدرك ابن خلدون التطورات التاريخية التي حصلت في مسار اللغة العربية التاريخي فميّز بين اللسان العربي الحميري وبين اللسان العربي المضري وبين لسان العرب لعهده(1) :

« لقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيّرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم في اشتقاق « القيل » في اللسان الحميري انه من « القول » وكثير من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها ، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر » (المقدمة صفحة 1075) .

لئن يؤكّد ابن خلدون على أنّ الحالات التاريخية الثلاث التي أشار اليها هي حالات تاريخية عائدة الى اللغة العربية الواحدة؛ إلا أنه مع ذلك يلاحظ الاختلاف بين الحالات هذه. فيشير الى بعض التبدلات والتغيرات التي حصلت في كل حالة من حالات التطور التاريخي للغة العربية :

« إنّ الكل عربياً . إلا أنّ ملكة هؤلاء (مُضر) في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك (حمير) ولكل منهما قوانين كلّية مستقرأة من عبارتهم غير قوانين الآخرين . وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة » (المقدمة صفحة 1024 — 1025) .

والتطور الحاصل في اللغة يتم إما بواسطة تغيُّـر بعض القوانين وإما بواسطة فقدان بعضها الآخر :

« لم يفقد من أحوال اللسان المدوَّن إلا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعـاً معروفـاً هو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان » (المقدمة صفحة 1074) .

يعي ابن خلدون إذا التغيرات التي تحصل في مسار اللغة التاريخي والتي تؤدي الى تغيرات في بعض القوانين كما تؤدي الى استحداث أو فقدان بعضها الآخر . وهو لا يكتفي بالتمييز بين مختلف الحالات التاريخية العائدة الى اللغة الواحدة بل يُلمّـح الى أهمية دراسة اللغة في واقعها الحالي عند أبناء جيله من العرب :

« ولعلّـنا لو اعتنينا بهـذا اللسـان العربـي لهـذا العصر واستقرينـا أحكامه ، نعتاض عن الحركات الاعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيّـات موجودة فيه ، فتكون لها قوانـين تخصّـهـا . ولعلّـهـا تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر » (المقدمة صفحة 1075) .

فالدراسة التعاصرية للغـة العـربية تصف لغـة أهـل الجيل وتُحلل التنـظيم اللغوي كما هو قائم حالياً . كما أنّ التمييز بين الدراسة التأريخية وبـين الدراسـة التعاصرية يُبين مدى التغيرات الحاصلة كما يُبين استمرارية القواعد والألفاظ المعمول بها :

« فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد » (المقدمة صفحة 1074) .

4 ـ تحديد الفونام كوحدة صوتية مميزة

في مستوى الفونولوجيا أي المستوى الصوتي في اللغة ، لاحظ ابن خلدون مسألة مهمة من أهم مسائل الدراسات الصوتية العامة ، وهي مسألة تحديد الفونام كوحدة صوتية مميَّـزة . يشير ابن خلدون الى ذلك ، بوضوح ، في معرض وصفه للأصوات اللغوية :

« إعلم أنّ الحروف في النطق ، كما يأتي شرحه بعد ، هي كيفيّات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس ، أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغاير كيفيّات الأصوات بتغاير ذلك القرع . وتجيء الحروف متمايزة في السمع » . (المقدمة صفحة 54) .

مما لا شك فيه أنّ ابن خلدون أدرك ، في كلامه هذا ، مفهوماً وضعياً تقوم عليه دراسة الأصوات اللغوية وتحليلها نعني به مفهوم التغاير . وقد استُخدم هذا المفهوم ، أيضاً ، في تحليل توزيع العناصر التركيبية فاقترن بالتالي بأسلوب البحث الألسني . فالوحدة اللغوية تتحدَّد ، من خلال السياق ، بواسطة لحظ العلاقة القائمة بين عنصرين من التنظيم اللغوي في المستوى اللغوي نفسه . ولا وجود للوحدة اللغوية خارج إطار تعارضها مع الوحدات اللغوية الأخرى . فتبدو الوحدات اللغوية ككيانات ترابطية لا يمكن إقرار الواحدة منها إلا بالنسبة الى وجود وحدة مغايرة لها في المرتبة ذاتها .

يلاحظ ابن خلدون أنّ مخارج الحروف متَّصلة في الجهاز الصوتي عند الانسان.إلا أنّ الأصوات اللغوية تتقطَّع الى وحدات مغايرة يُحددها الاستعمال اللغوي . فيأتي كل صوت لغوي متمايز في السمع عن بقية الأصوات اللغوية وهذه الأصوات اللغوية المتمايزة هي التي تؤلّف الكلام :

« وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركّب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر . وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف . فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى » . (المقدمة صفحة 54) .

« العبارة وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركّبة من الحروف وهي كيفيات الأصوات المقطَّعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبيَّن بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم » (المقدمة صفحة 1023) .

فالوحدات الصوتية أي الفونامات تُكوِّن الألفاظ اللغوية . وبإمكان الباحث

في مجال اللغة التمييز بين مستويين : المستوى الصوتي والمستوى التركيبي الذي يتكون من عناصر ذات معنى تتوافق في ما بينها لتؤلف الجمل في السياق التخاطبي . وهذه العناصر أي المورفامات تتركّب من الأصوات « المقطعة بعضلة اللهاة واللسان » أي من الأصوات المتمايزة .

وقد يكون من المفيد ، في بحثنا هنا ، أن نقارن بين قول ابن خلدون الذي أوردناه وبين قول مقارب لفردينان دي سوسور :

« إنّ هذا صحيح أكثر في ما يختص بالدال Signifiant اللغوي الذي ليس هو أبداً في جوهره صوتياً إذ لا جسد له ومكوّن ليس من مادته المادية وإنما فقط من الفروقات التي تفصل صورته السمعية عن بقية الصور السمعية الأخرى .

إنّ هذا المبدأ أساسي بدرجة أنه ينطبق على جميع العناصر المادية للغة بما فيها الفونامات . وكل لغة تؤلف كلماتها على أساس تنظيم من العناصر الصوتية حيث يشكل كل منها وحدة محدَّدة بوضوح ويكون عدد العناصر الصوتية هذه محدداً بدقة . وما يميِّزها ليس هو صفتها الخاصة والإيجابية ، كما يخيِّل الينا ، بل وببساطة كونها مختلفة بعضها عن بعض »[2] .

إذاً العنصر الصوتي يتحدَّد من خلال تمايزه عن العناصر الصوتية الأخرى وهذا ما أدركه ابن خلدون ، وأشار اليه بوضوح . ولا بد من أن نشير ، هنا ، إلى أنّ ابن خلدون قد اقترب في بحثه في مجال الأصوات اللغوية من البحوث الألسنية المعاصرة في ما يتعلَّق بمسألة التمييز بين فونامين مميَّزين وبين متغيَّرين صوتيين لفونام واحد أي لوحدة صوتية واحدة . يقول أندريه مارتينه في هذا المجال :

« بإمكان السمة الصوتية نفسها أن يكون لها وظيفة معينة في لغة ما وقيمة مختلفة تماماً في لغة أخرى . . .

ففي اللغة العربية « الراء » و« الغين » ، يكونان فونامين مميَّزين في حين أن استعمال الواحد منهما أو الآخر في اللغة الفرنسية لا يُؤثر على المعنى المقصود إنما يُفيد بمعلومات حول شخص المتكلّم »[3] .

نلاحظ الرأي نفسه عند ابن خلدون ، في معرض كلامه على لغة جيله ، حين يتناول مسألة النطق بالقاف العربية ؛ إذ يُشير الى أنّ هذا الفونام هو فونام واحد بالرغم من تحقيقه عبر صوتين لغويين مميِّـزين سمعياً :

« والظاهر أنّ هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أوّلهم من أصل اللغة وأنّ مخرج القاف متّسع ، فأوّله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف . فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار ، والنطق بها مما يلي الكاف هو لغة هذا الجيل البدوي . . .

ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف وهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد ، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف . على أنها حرف مستقل ، وهو بعيد . والظاهر انها من آخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه . . .

وقد يزعم زاعم أنّ هذه القاف التي ينطق بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف ، وانها إنما جاءت من مخالطتهم للعجم ، وانهم ينطقون بها كذلك ، فليست من لغة العرب . ولكن الاقيس وكما قدّمناه من أنهما حرف واحد متّسع المخرج . فتفهم ذلك والله الهادي المبين » . (المقدمة صفحة 1077 ـ 1078) .

واضح أنّ ابن خلدون يرفض اعتبار وجود فونامين متقاربين في مخرج القاف . كما أنه يرفض أن يعتبر أحد الصوتين فوناماً جديداً دخل اللغة العربية بواسطة الاقتراض من لغة العجم . فهذان الرأيان الذان يأخذ البعض بهما ، هما عاريان عن الصحة العلمية وأنّ المسألة هي في اتساع مخرج القاف وفي أنّ هذا الفونام فونام مميِّز واحد في اللغة العربية وإن تحقّق بصوتين متغايرين في مجتمعات عربية متباعدة زمنياً أو مكانياً . وتحليل ابن خلدون هذا هو التحليل المقبول ألسنياً . وهو مماثل لتحليل الألسني الفرنسي أندريه مارتينه بالنسبة لمخرج الراء في اللغة الفرنسية كما رأينا . فمارتينه يرفض اعتبار وجود فونامين متقاربين في مخرج الراء (الراء والغين) في اللغة الفرنسية .

5 ـ تتناول الدراسة اللغوية الشكل اللغوي وليس المعنى

في مجال التحليل اللغوي يعي ابن خلدون أنّ الدراسة اللغوية تتناول الشكل اللغوي وبصورة أساسية . فيميِّز ، بالتالي ، بين اللفظ والمعنى . ويولي اللفظ الأهمية الأساسية في دراسة اللغة . وهذا واضح في كلامه التالي :

« إعلم أنّ صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل . فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقرّ له الملكة في لسان مضر » (المقدمة صفحة 1110) .

فالملكة اللسانية إذاً هي في الألفاظ، أي في معرفة الأشكال اللغوية . والألفاظ هي المادة اللغوية :

« والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، أما المعاني فهي في الضمائر . وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكرٍ منها ما يشاءُ ويرضي ، فلا تحتاج الى تكلف صناعة في تأليفها . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني » . (المقدمة صفحة 1111) .

واضح أنّ ابن خلدون ينظر الى الملكة اللسانية من حيث هي المقدرة على صياغة الألفاظ والمؤلفات الكلامية ولا يعتبر المعنى أو الدلالة من ضمن الملكة اللسانية فتحليل المعنى أو الدلالة لا يتم من خلال تحليل اللغة بل يندرج ضمن اهتمامات علم النفس « فالمعاني في الضمائر » .

لقد اقترب ابن خلدون ، في نظرته الى الملكة اللسانية من حيث هي المعرفة بالألفاظ والقوالب ، من النظريات الألسنية الحديثة . فالألسنية البنيانية الاميركية ، على سبيل المثال ، وكما نلاحظها في مؤلفات بلومفيلد وهاريز ، تولي الشكل اللغوي كل إهتماماتها ولا تدخل دراسة الدلالة ضمن اهتماماتها . والألسنية التوليدية والتحويلية تسعى الى وضع القواعد التوليدية الشكلية التي تقرن الدلالة بالصوت اللغوي .

إذاً ، يفصل ابن خلدون بين اللفظ وبين المعنى وفي يقينه أنّ الملكة اللسانية هي المعرفة باللفظ أو بالقالب الذي يحتوي المعنى . فالإنسان يُعبِّر عن المعاني بالألفاظ التي تحتوي على المعاني :

« ثم يتصرَّف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم » (المقدمة صفحة 1080) .

« وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية . . . مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني . . . وهذا شأن المعاني مع الألفاظ » (المقدمة صفحة 1052 — 1053) .

6 ـ التركيز على دراسة مستوى التراكيب في اللغة

« إعلم أنّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان ، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها . وليس ذلك بالنظر الى المفردات ، وإنما هو بالنظر الى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبِّق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة » . (المقدمة صفحة 1071) .

أدرك ابن خلدون ، من خلال بحثه في الملكة اللسانية ، بعداً آخراً من أبعاد الألسنية الحديثة . ذلك البعد هو التركيز على دراسة مستوى التراكيب فالألفاظ تتركَّب في تراكيب كلامية ، ودراسة التراكيب تتناول توزيع العناصر الكلامية في الجملة ومواقعها والعلاقات التي تربط في ما بينها والوظائف النحوية التي تتحدَّد من خلال علاقة العنصر الكلامي بالجملة . فكل عنصر يقوم بتأدية دوره ويتّخذ موقعه في الجملة التي تتحدد من خلال عناصرها .

إنّ الملكة اللسانية ، في يقين ابن خلدون ، هي في المقدرة على تركيب الألفاظ وفق القواعد التركيبية أو وفق قواعد المكوِّن التركيبي ، إذا سمحنا لنفسنا بأن نستعمل مصطلحات النظرية التوليدية والتحويلية . وغني عن الذكر أنّ الألسنية التوليدية والتحويلية تركِّز اهتمامها على قواعد المكوِّن التركيبي . فالنظرية الألسنية تنظر الى

المكوّن التركيبي من حيث هو المكوّن التوليدي الوحيد في اللغة في حين أنها تعتبر أنّ المكونين الآخرين : الصوتي والدلالي، مكوّنان تفسيريّان. كما أنّ النظرية الألسنية التوليدية تُشدِّد على مفهوم استقلالية المكوّن التركيبي بمعنى أنّ مصطلحات هذا المكوّن تتم من دون اللجوء الى المكوّنين الآخرين بالرغم من أنّ قواعد هذا المكوّن تقرن بين الصوت والمعنى في الجملة وانها تكوِّن إذا صحّ التعبير جسراً بين المكوّن الصوتي والمكوّن الدلالي .

7 ـ تمايز لغة الشعر

يُلاحظ ابن خلدون التفاوت القائم بين لغة الشعر وبين لغة التخاطب العادية . ويولي هذه المسألة اهتمامه في فصول عدة (المقدمة من صفحة 1093 الى صفحة 1168) يُعالج فيها المذاهب والأساليب وتمايزها في الشعر والنثر واكتساب الملكة في الشعر والنثر وإجادتها . كما يتناول المطبوع والمصنوع من الكلام ويفاضل بين الكلام في العصر الاسلامي وبينه في العصر الجاهلي ، ويتطرّق الى صناعة النظم والنثر من حيث انها في الألفاظ لا في المعاني .

يؤكِّد ابن خلدون أنّ لكل نوع من أنواع الكلام مذاهب وأساليب استعمال :

> « واعلم أنّ لكل واحدٍ من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفنّ الآخر ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك » (المقدمة صفحة 1094) .

لا يهمنا ، في بحثنا هذا ، أنّ ابن خلدون قد استفاض في حديثه عن الشعر واختلاف أساليبه عن أساليب النثر بقدر ما يهمنا القول انه أدرك تمايز لغة الشعر عن لغة التخاطب العادية . بكلام آخر أدرك أنّ للغة الشعر خصائص مغايرة عن خصائص الكلام العادي . ولم يرد ذلك كغيره الى تصرُّف الشعراء ببعض قضايا النحو لمقتضيات « الضرورة » الشعرية .

تمتاز لغة الشعر ، في نظر ابن خلدون ، بخصائص ذاتية عائدة الى طابع اللغة الشعرية وليس إلى « الضرورة » كما ينظر النحاة الى هذه المسألة عموماً . ويلتقي ،

هنا مجدَّداً ، في ما يتعلَّق بهذه المسألة مع الفكر الألسني الحديث الذي يُميِّز بين لغة الشعر ولغة التخاطب العادية ، والذي يخصّ كل منهما بالدراسات المستقلة ويقارن بينهما ، وذلك بهدف تبيان خصائص اللغة الشعرية والمبادىء التي تقوم عليها الكتابة الشعرية .

يعي ابن خلدون إذاً مسألة تمايز الشعر بوضوح :

« ولصعوبة منحاه وغرابة فنّه (الشعر) كان محكّاً للقرائح في استجادة اساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه . ولا تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطّف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصّته العرب بها وباستعمالها فيه » . (المقدمة صفحة 1099) .

لا تكفي ، في الواقع ، ملكة الكلام العربي في مجال التكلم شعراً . فإجادة اللغة الشعرية تقتضي إجادة بعض القوانين الإضافية والتي لا تندرج ضمن قوانين ملكة الكلام العربي العادي . ويعود ذلك الى تمايز لغة الشعر . فالعرب قد « اختصّت » الشعر بأساليب وقوانين استعمال خاصة به . ويُضيف ابن خلدون القول :

« فهذه العلوم الثلاثة (الاعراب ـ البلاغة والبيان ـ العروض) خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلّية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن في اعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال » (المقدمة صفحة 1100) .

إنّ أهم ميزة للشعر ، في رأي ابن خلدون ، هي انه قائم على « تراكيب منتظمة كلّية » . فيستمد الشاعر تراكيبه الخاصة من هذه التراكيب الكلية القائمة في ذهنه ضمن ملكته الشعرية . وهذه التراكيب الكلّية بمثابة القالب أو المنوال . وضمن هذا القالب يتم إدخال التراكيب الصحيحة عند العرب :

« ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان ، فيرصها فيه رصّاً ، كما يفعله البنّاء في القالب أو النسّاج في

المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . (المقدمة صفحة 1100) .

يقتضي التعامل مع لغة الشعر معرفة هذه القوالب المجرَّدة وهذه التراكيب الكلّية المنتظمة فضلاً عن معرفة قوانين اللغة العربية . وفي هذا المنظار ، تقوم ملكة الشعر على المقدرة على استعمال الكلام العربي بصورة صحيحة من خلال ادراجه ضمن التراكيب ووفق القوانين المختصة بالشعر . ولا نستطيع أن نتكلم على شاعرية المرء ما لم :

« يتجرَّد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كليّ مطلق يحذو حذوه في التأليف » (المقدمة صفحة 1103) .

من هذا المنطلق العلمي التجريدي يُميِّز ابن خلدون في إطار اللغة الواحدة بين المستوى الشعري والمستوى العادي للكلام . فالملكة الشعرية تتضمن الملكة الكلامية العادية الى جانب قوانين وقوالب مجرَّدة خاصة بها . والجدير بالذكر ، أنَّ الملكة الشعرية ، كما يتبيَّن لابن خلدون ، لا تستعمل كل مسائل الملكة الكلامية :

« وليس كل ما يصحّ في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه . وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطَّلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية . فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو ، وبهذه الأساليب الذهنية ، التي تصير كالقوالب ، كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم ، لا فيما يقتضيه القياس » (المقدمة صفحة 1102) .

نستخلص من كلام ابن خلدون هذا ، أنَّ اللغة الشعرية تحوي على عناصر اللغة العادية الى جانب عناصر وقوالب خاصة بها ، من دون أن تستنفد مع ذلك كلَّ عناصر اللغة العادية . فهناك عناصر كلامية خاصة باللغة العادية لا تلجأ إليها اللغة الشعرية كما أنَّ هناك عناصر كلامية خاصة باللغة الشعرية لا نجدها في اللغة العادية .

تبقى الإشارة الى تحديد ابن خلدون للشعر . فهو يُحدِّد الشعر على النحو التالي :

« الشعر هو الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف ، المفصَّل بأجزاء متفقة الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » (المقدمة صفحة1104) .

يتضمَّن هذا التعريف المسائل التالية :

1 ـ الشعر هو الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف .
2 ـ الشعر مفصَّل بأجزاء متفقة في الوزن والروي كل جزء منها مستقل في مقصده .
3 ـ الشعر هو الكلام الجاري على أساليب العرب المخصوصة به .

ففي(1) يحدّد ابن خلدون الشعر من حيث لغته القائمة على قضايا بلاغية كالإستعارة والوصف . وفي(2) يتحدَّد من حيث هيكليته وبنيته واستقلالية وحدته ألتي هي البيت الشعري . أما في(3) فإبن خلدون يُحدِّد الشعر تحديداً شكلياً من حيث انه يجري على أساليب العرب المخصوصة به . والعنصر الثالث من هذا التحديد هو شكلي لأنه يرتبط بالأسلوب . ومفهوم ابن خلدون للاسلوب هو مفهوم شكلي كما يتبيَّن لنا من تحديده للاسلوب :

« ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم . فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تُنسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي يفرغ فيه . ولا يُرجع الى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب ، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلّية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويُصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة

عند العرب باعتبار الاعراب والبيان ، فيرصّها فيه رصّاً ، كما يفعله البنّاء في القالب أو النسّاج في المنوال ، حتّى يتّسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه » . (المقدمة صفحة1099 -1100) .

لن نستطرد في تحديد ابن خلدون للغة الشعر بل نترك للقارىء أن يُقدِّر دقَة التحديد هذا . فقد استنفد ابن خلدون في تحديده هذا كل المسائل التي بالإمكان تحديد الشعر بها . وذلك لأنه حدَّده من حيث لغته بشكل يتمحور حول المرسلة اللغوية إذا أردنا استعمال التعابير الألسنيَة الحديثة(4) . كما أنه حدَّده من حيث بنيته وهيكليته . ولم يهمل ، أيضاً ، الناحية الشكلية إذ تضمَّن تحديده ذكر القالب الشكلي والمنوال الذي يقوم عليهما الشعر ، وبإمكان القارىء أن يلاحظ مرَّة أخرى نظرة ابن خلدون الى اللغة وقضاياها النظرة العلمية الصائبة .

هوامش الفصل الرابع

(1) اللغة الحميرية هي أشهر اللغات الجنوبية وموطنها كان في اليمن وفي جنوب المملكة العربية السعودية . أما اللغة المضرية فهي اللغة العربية الفصحى .

(2) فردينان دي سوسور(1916) صفحة164

(3) اندره مارتينه(1960) صفحة63

(4) يحُدِّد الألسني جاكبسون ست وظائف للتواصل اللغوي ومن بينها يركِّز اهتمامه بالوظيفة الشعرية التي تتمحور ، في رأيه ، حول المرسلة اللغوية . لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا (1984 ـ أ) صفحة85 وما بعد .

الفصل الخامس

الظواهر النفسية العائدة الى الملكة اللسانية

1 ـ اكتساب اللغة

من بين الظواهر النفسية العائدة الى الملكة اللسانية استرعت ظاهرة اكتساب اللغة انتباه ابن خلدون أكثر من غيرها . وقد أدرك ، هنا أيضاً ، وبفضل حسّه العلمي ، بعداً آخراً من أبعاد الألسنية . وذلك لأنّ دراسة اكتساب اللغة ترتدي أهمية بالغة في إطار الدراسات الألسنية حالياً . وتندرج في مجال ما دُعي بعلم النفس اللغوي أو السيكو ـ ألسنية » . وتعود أهمية دراسة اكتساب اللغة الى أنّ اللغة هي جزء من المعرفة الانسانية ودراسة اكتسابها تسلِّط الأضواء على قضايا الفكر واكتساب المعرفة بصورة عامة .

عالج ابن خلدون مسألة اكتساب اللغة وتأثير مسار الاكتساب هذا على الملكة اللسانية . وأدلى بآراء متطورة جداً في هذا المجال . انطلق ، في تفكيره ، من منطلق ثابت ، مفاده أنّ اللغة ملكة لسانية يكتسبها الإنسان . يقول في هذا الصدد :

« إلاّ أنّ اللغات لما كانت ملكات كما مرَّ ، كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات (المقدمة صفحة1080) .

فاللغة ميزة انسانية يكتسبها الانسان بشكل طبيعي ، مما يضفي ، بالذات ، على عملية الاكتساب هذه ، مظهراً طبيعياً .

« فإنّ الملكات إذا استقرَّت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبلّة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أنّ الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة ، أمر طبيعي .

ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك . إنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكّنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي انها جبلّة وطبع » (المقدمة صفحة1085) .

واضح أنّ ابن خلدون يرى أنّ الانسان يتكلّم لغته بصورة طبيعية . إلاّ أنّ ذلك يحصل ، في رأيه ، من خلال عملية اكتساب تتم عند كل انسان . والملكة اللسانية حصيلة هذه العملية بالذات :

« لأنّ الأفعال الاختيارية كلّها ليس شيء منها بالطبع ، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة فيظنها المشاهد طبيعية كما هو رأي كثير من البلداء في اللغة العربية : العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع . وهذا وهم . (المقدمة صفحة1025) .

إذ يُؤكّد ابن خلدون أنّ الملكة اللسانية مكتسبة ، يميّز بين نوعين من العمليات الاكتسابية في مجال اللغة : الاكتساب من خلال الترعرع في البيئة وسماع لغتها ، والاكتساب (التعلّم) بواسطة الحفظ والمران .

2 ـ إكتساب اللغة من خلال الترعرع في البيئة

يكتسب الانسان لغته ، في مرحلة طفولته ، من خلال ترعرعه في بيئته ومن خلال سماع كلام المجتمع المحيط به . وهذا الاكتساب طبيعي يتم عند الانسان بصورة طبيعية ولا يرتبط بجنس الطفل . إنما الطفل يكتسب لغة البيئة التي يسمع كلامها خلال نموه الطبيعي . يقول ابن خلدون في هذا الصدد :

« فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ، فيلقّنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقّنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرّر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم . هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والأطفال . وهذا هو معنى ما تقوله

العامة من أنّ اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أُخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم (المقدمة صفحة 1071 -1072) .

وتشمل عملية الاكتساب الأطفال والكبار الذين يعيشون في مجتمع لا يتكلم لغتهم . ويتعلّم الكبار لغة المجتمع الذي يعيشون ضمنه بصورة طبيعية ، من خلال سمعهم لكلام هذا المجتمع . وهم ليسوا بحاجة ، بالتالي ، الى من يلقنهم اللغة ولا يسعنا ، بالتالي ، اعتبار علاقة الأطفال والعجم بكلام البيئة عملية تعليم . كما اننا لا نستطيع اعتبار كلام البيئة مادة لغوية تعليمية . إذ أنّ ما من أحد يُلقّن أحداً اللغة . جلّ ما في الأمر ، أنّ الأطفال « والعجم » يكتسبون المعرفة من خلال تعرُّض متواصل للكلام الذي يسمعونه من حولهم ، فيحاولون بوسائلهم الذاتية ، اتقانه واكتساب الملكة اللسانية : « إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة فيهم » . فعملية الاكتساب ، إذاً ، عملية ذاتية يقوم بها الإنسان انطلاقاً من قدراته الذاتية ومن خلال سماعه كلام أهله أو أهل جيله . « والسمع أبو الملكات اللسانية » كما يحلو لابن خلدون التركيز عليه (المقدمة صفحة 1057) .

تجدر بنا الإشارة ، هنا ، إلى أنّ عملية اكتساب اللغة تتم من خلال سماع كلام البيئة كما تتم ، أيضاً ، من خلال المحاولات التي يقوم بها الطفل لاستعمال الكلام . فالطفل يسمع كلام بيئته فيدأب الى استعمال هذا الكلام . يلاحظ ابن خلدون ، هنا ، الناحية الابداعية في عملية الاكتساب هذه حين يُشير الى أنّ سماع الطفل « يتجدَّد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرَّر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم » .

تتجلّى الإبداعية في اللغة ، هنا ، عبر تجدد الكلام الذي يسمعه الطفل وتنوعه وتكرار المحاولات الكلامية التي يقوم بها والناحية التجددية هذه في اللغة هي إحدى مظاهر الإبداعية في اللغة . فاللغة الانسانية تتصف بميزة اساسية هي ميزة الابداعية من حيث انها تُوفِّر للإنسان امكانية التعبير بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة وفي ظروف ومواقف متجددة دائماً . فالسلوك اللغوي العادي يتضمَّن كميزة أساسية ، ميزة الابتكار والتجديد وبناء جمل جديدة . فكل تعبير انساني تعبير متجدد (2) .

غني عن الذكر أنّ الطفل حين يكتسب لغته يكتسب وسيلة تعبير إبداعية تتيح

له التعبير عن أفكار متجددة ؛ كما تتيح له ، أيضاً ، تفهم تعابير فكرية متجددة . لذلك لا بد من أن تتم عملية اكتسابه للّـغة في إطار سماع « يتجدد في كل لحظة » ومن خلال استعمال يتكرّر الى أن يصير ملكة » .

يركّـز ابن خلدون على الممارسة والتكرار خلال عملية الاكتساب :

« وهذه الملكة كما تقدَّم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرّره على السمع والتفطّـن لخواص تراكيبـه ، وليسـت تحصـل بمعرفـة القوانـين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان . فإنّ هذه القوانين إنما تُفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصـول الملـكة بالفعـل في محلّـهـا » (المقدمة صفحة 1086) .

« وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرُّر لكلام العرب » (المقدمة 1087) .

وعملية الاكتساب ، في يقين ابن خلدون ، عملية وجدانية :

« وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العـرب ، حتـى يصـير كواحد منهم .

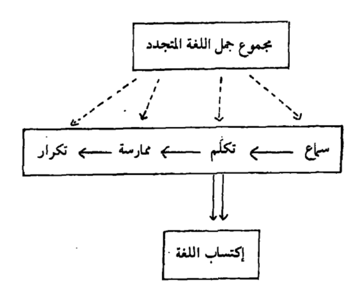
ومثاله : لو فرضنا صبياً من صبيانهم ، نشـأ وربّـى في جيلهـم ، فإنه يتعلّم لغتهم ويُحكّم شأن الاعراب والبلاغة فيها ، حتى يستولي على غايتها (المقدمة صفحة 1086) .

واضح في اعتقاد ابن خلدون ، أنّ الطفل يكتسب لغة البيئة التي ينشأ فيها . فعملية اكتساب اللغة لا ترتبط ، بأيّ حال من الأحوال ، بجنس انساني معيَّـن أو بلغة معينة . فالطفل الانساني بمقدوره إتمام هذه العملية من خلال نموه في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية بحيث يكتسب لغة المجتمع الذي يتعرض فيه لكلام أهله . فاكتساب اللغة ، في الأساس ، ميزة يختص بها الانسان بصورة عامة » .

تتكوّن المدوَّنة » التي يستمد منها الطفـل مادتـه اللغـوية من مجمـوع جمـل المتكلمين في البيئة المحيطة به . ويعمل الطفل من خلال هذه المدونة على استنباط قواعد لغته بصورة ضمنية بحيث يحصل على الملكة اللسانية التي تتيح له التعبير عن مقاصده من خلال مخالطة كلام أهل بيئته :

« ويتنزَّل في ذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم ، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم » (المقدمة صفحة 1084) .

فالمدوّنة التي يستمد منها الطفل مادته اللغوية هي ، في التالي ، مجموع كلام المحيط الذي ينشأ فيه الطفل . وهي عنصر أساسي من عناصر عملية اكتساب اللغة . وبإمكان تلخيص نظرة ابن خلدون الى الاكتساب اللغوي من خلال الترعرع في البيئة ، بالمخطط التالي .



3 ـ إكتساب اللغة بواسطة الحفظ والمران

وعى ابن خلدون العلاقة القائمة بين اكتساب اللغة وبين تعلّم اللغة وأدرك ضرورة الاستفادة من معرفتنا بقضايا الاكتساب وتوظيفها في مجال تعلّم اللغة . والسبيل الى ذلك هو ايجاد الأجواء المناسبة لعملية تعلّم اللغة . فالطفل يكتسب لغته ، كما يقول ابن خلدون ، من خلال سماعه كلام بيئته وبالإستناد الى قدراته الذاتية ، أو إلى استراتيجيته الذاتية كما نقول ، حالياً ، في إطار النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية . ولا بد ، في ما يختص بمن يرغب في تعلّم اللغة العربية ، من أن تُوفّر له الأجواء الكلامية المناسبة لإفساح المجال أمام قدراته الذاتية لتحقيق عملية التعلّم هذه . وفي اعتقاد ابن خلدون ، يجب أن تعادل الأجواء الكلامية

الموضوعة قدر الإمكان ، المادة الكلامية الفصيحة التي قلنا إنّ الطفل العربي كان يسمعها خلال ترعرعه في البيئة العربية القديمة . وأفضل ما بالإمكان إحاطة المتعلّم المعاصر لابن خلدون ، به ، هو النتاج العربي الفصيح ، وأسلم طريقة تربوية توجيهية هي الطلب من المتعلم التعامل مع هذا النتاج الثقافي حفظاً وممارسة[5] . يقول ابن خلدون في هذا الصدد :

« إلا أنّ اللغات لما كانت ملكات كما مرَّ كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم ، حتى يتنزَّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقّن العبارة عن المقاصد منهم » . (المقدمة صفحة 1080) .

إذاً ، تقتضي منهجية تعليم اللغة توافر ظروف مرافقة مشابهة للظروف التي ترافق عملية تعلُّم اللغة بحيث تنمو اللغة في ذهن المتعلم ، فيكتسب الملكة اللسانية الشبيهة ، على حد قول ابن خلدون :

« بالملكة الأولى التي أخذت عن العرب ولم يأخذوها عن غيرهم » (المقدمة صفحة 1071) .

فالهدف من تعليم اللغة يكون ، بالتالي ، باكساب المتعلِّم ملكة شبيهة بملكة العربي .

« والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة » (المقدمة صفحة 1099) .

وكلام العرب هو ، في الحقيقة ، خير مادة تعليمية ينسج على منواله كل من يرغب بتعلّم اللغة العربية :

« إنّ حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب ، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه . ويتنزَّل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم » . (المقدمة صفحة 1084) .

وحفظ الكلام العربي الفصيح يحيط المتعلّـم بالمادة الكلامية المناسبة ويجعله في وضع شبيه بوضعِ صغار العرب ممن نشأوا في جيل العرب :

« فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر ، إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلّـص من العجمة التي ربى عليها في جيله ويفرض نفسه ، مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويُلقّـن لغتهم كما يُلقنها الصبي حتى يصير كأنّـه واحد منهـم في لسانهـم » . (المقدمة صفحة 1110 — 1111) .

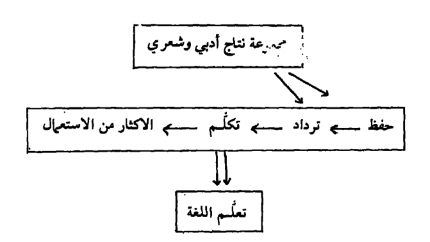
تستقر ، إذاً ، الملكة اللسانية من خلال حفظ كلام العـرب وتـرداده الى أن يجري على اللسان بصورة طبيعية :

« وذلك إنا قدمنا أنّ للسان ملـكة من الملـكات في النطـق يحـاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات » . (المقدمة صفحة 1110) .

ويتم ترسيخ الملكة عبر كثرة الحفظ والاستعمال :

« فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرتها رسوخاً وقوّة » (المقدمة صفحة 1081) .

واضح أنّ تعلّم اللغة ، في يقين ابن خلـدون ، يتـم من خلال توفير مادة كلامية حيّـة ووضعها في متناول حفظ المتعلّـم بحيث يتفاعل مع اللغة وهي تعمل وتحمل النتاج الثقافي الأدبي الفصيح(6) . فيكتسب اللغة على نحو شبيه بالطفل الذي يترعرع في مجتمعه حيث يكتسب ، بصورة طبيعية ، لغتـه . وبالإمـكان تلخيص عملية تعلّـم اللغة ، في رأي ابن خلدون ، بالمخطط التالي :



4 ـ نظرية اكتساب اللغة

أصبحنا الآن في وضع يُتيح لنا أن نتكلّم على نظرية اكتساب اللغة عند ابن خلدون .

ينظر ابن خلدون ، كما مرّ بنا ، الى اللغة من حيث هي ملكة لسانية مكتسبة يتم للانسان اكتسابها على أفضل وجه عندما يكون على الفطرة :

« من كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها . فإذا تلوّنت النفس بالملكة الأخرى خرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف » (المقدمة صفحة 721 -722) .

وهذه الملكات جسمانية

« والملكات كلها جسمانية ، سواء كانت في البدن أو في الدماغ ، من الفكر وغيره ، كالحساب . والجسمانيّات كلّها محسوسة فتفتقر الى التعليم » (المقدمة صفحة 771) .

إلا أنّ البدن وأجزاءه في نظر ابن خلدون ، آلات للنفس ولقواها . فالملكة اللسانية هي أداة للنفس الانسانية ؛ أي هي صفة للنفس . هي حقيقة نفسية :

« ثم أنّ هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن ، فكأنّه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها ، أمّا

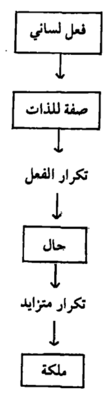
الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلّية بالبدن متدافعاً » . (المقدمة صفحة 168) .

فهذه الملكة اللسانية إذاً حقيقة نفسية . يتم اكتسابها كما أشرنا اليه ، إما من خلال الترعرع في البيئة التي تتكلمها و إما من خلال حفظ الكلام الفصيح . وفي كلتي الحالتين تكتسب الملكة اللسانية التي هى فعل لساني ، من خلال التكرار والممارسة والإكثار من الاستعمال .

ويمرّ اكتساب الملكة اللسانية بمراحل عديدة يلخصها ابن خلدون على الشكل التالي :

« الملكات لا تحصل الا بتكرار الأفعال لأنّ الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرّر فتكون حالاً . ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة » (المقدمة صفحة 1071) .

بالإمكان تمثيل كلام ابن خلدون هذا بالمخطط التالي :



يمر اكتساب اللغة ، في رأي ابن خلدون ، بعدة مراحل : الفعل ومنه الصفة للذات . وتتحوّل الصفة بواسطة تكرار الفعل ، إلى حال إلى أن تستقيم ملكة راسخة .

لن نستطرد أكثر من ذلك في ما يختص بتحليل ابن خلدون لعملية اكتساب الملكة اللسانية(7) . فالهدف في بحثنا ، كما أوضحناه في مطلع البحث ، ليس التوسّع بأفكار ابن خلدون في المجال اللغوي ، بقدر ما هو إظهار بعض الآراء اللغوية المتطورة التي أتى بها في مقدمته . بقي أن نقول إنّ ابن خلدون أثار مسألة اكتساب اللغة بوضوح وأبدى بعض الآراء التي بالإمكان اعتبارها متطورة جداً نسبة الى عصره وإلى أيامنا هذه أيضاً . أثار هذه المسألة وأدرك بثاقب نظره ضرورة البحث فيها حينما قال :

« وهذه الملكة كما تقدَّم ، إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطُّن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان . فإنّ هذه القوانين انما تُفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة في محلّها » (المقدمة صفحة 1086) .

ما هو جدير بالبحث هو حصول الملكة في محلّها أي ما نسميه ، حالياً ؛ بنظرية الاكتساب اللغوي . وعودة الى النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية ، تُظهر أهمية هذه المسألة . فتشومسكي يولي هذه المسألة اهتماماً متزايداً :

« إنّ المسألة الأساسية في دراسة اللغة ، في رأيي ، هي أن نفسّر كيف بالإمكان اكتساب المعرفة باللغة ، هذه المعرفة التي لا تكفي التجربة ، بالتأكيد ، لتحديدها . فعلى نحو ما ومن خلال مدّ التجربة اللغوية العادية المشوش ، ينمو في الدماغ وبشكل محدَّد تنظيم كفاية قواعدية غني وواضح »(8) .

إنّ مسألة كيفية اكتساب الكفاية اللغوية مسألة مهمة جداً في إطار النظرية التوليدية والتحويلية التي تسعى الى وضع نظرية اكتساب اللغة بحيث تُحدَّد ، ضمن الكفاية اللغوية الخاصة بمتكلم اللغة ، القضايا الفطرية والقضايا المكتسبة ،

وتُدرس كيفية اكتساب اللغة وعلاقة الاكتساب بالقواعد الكلّية »[9] .

لا بد لنا ، هنا ، من أن نوجز مفهوم النظرية الألسنية لاكتساب اللغة وذلك لاظهار مدى التقارب في الاهتمامات بين ابن خلدون وبين النظرية الألسنية الحديثة .

تحتل نظرية اكتساب اللغة مكاناً بارزاً في اهتمامات تشومسكي لارتباطها بالمبادىء التي تتحكّم ببنية اللغة وكثيراً ما يتساءل ، في مؤلفاته عن طبيعة الاكتساب هذه وعن إمكانية وضع نظرية تمكن تسميتها بنظرية الاكتساب :

« لنتأمّل أولاً كيف يتصرّف العالم عندما يدرس نظرية الاكتساب . فأوّل خطوة طبيعية يقوم بها تكون في أن يختار جهازاً عضوياً ومجالاً معرفياً محدَّداً بصورة معقولة وفي أن يحاول بناء نظرية تمكن تسميتها بنظرية تعلّم الجهاز العضوي في المجال المعرفي . وهذه النظرية يمكن النظر اليها كتنظيم من المبادىء وكآلية أو كخاصية لها بعض المدخلات وبعض المخرجات . فالمدخلات هي تحليل المعطيات في المجال المعرفي من قبل الجهاز العضوي والمخرجات تكوّن بنية معرفية بشكل ما . فالبنية المعرفية هي أحد عناصر المرحلة التي يتوصّل اليها الجهاز العضوي . فعلى سبيل المثال ، لنعتبر أنّ الجهاز العضوي هو الانسان ، والمجال المعرفي هو اللغة . فنظرية التعلّم المختصّة بالانسان في مجال اللغة ، تغدو تنظيم المبادىء الذي يتوصّل بواسطته الانسان الى المعرفة اللغوية »[10] .

يلاحظ تشومسكي أنّ نمو الطفل اللغوي يمر بعدَّة مراحل قبل أن يصل الى مرحلة اكتساب اللغة . فالطفل يملك ، بالفطرة ، تنظيماً ثقافياً يُمكن تسميته بالحالة الاساسية للعقل . فمن خلال التفاعل مع البيئة وعبر مسار النمو الذاتي ، يمر العقل بتتابع حالات تتمثل فيها البنى المعرفية . وفي ما يتعلّق باللغة تحصل تغيّرات سريعة نسبة الى الحالة الأساسية للعقل خلال المرحلة الباكرة من الطفولة . وبعدها تكتمل حالة عقلية صلبة وثابتة تتمثّل فيها معرفة اللغة بطريقة معيّنة عند الإنسان .

لن نقوم هنا بإجراء مقارنة بين تفكير ابن خلدون وتفكير تشومسكي . نكتفي فقط بتكرار الإشارة الى أنّ اهتمامات ابن خلدون ، هنا أيضاً ، في مجال البحث في اكتساب الملكة اللسانية، تقارب الاهتمامات الألسنية الحالية .

5 ـ النفس لا تتسع لأكثر من ملكة لسانية تامة واحدة

رأينا أنّ الملكة اللسانية تستقر في الذات بعد عملية اكتساب يقوم بها المرء من خلال معايشته لكلام لغته . والجدير بالذكر ، هنا ، أنّ الانسان لا يستطيع أن يمتلك ، بصورة تامة ، أكثر من ملكة لسانية واحدة . يُشير ابن خلدون الى ذلك بوضوح :

« وإذا تبيّن لك ذلك ، علمت منه أنّ الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرّين الى النطق به لمخالطة أهله ، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب ، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة الذي مَرَّرنا أمرها لأنّ قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى الى اللسان ، وهي لغاتهم (المقدمة صفحة 1087) .

يُفسر ابن خلدون مسألة عدم استطاعة الأجانب امتلاك ملكة لسانية في لغة غير اللغة التي ترعرعوا في بيئتها ، بأنّ الموقع في النفس المختص بالملكة اللسانية قد احتلّته الملكة اللسانية العائدة الى لغة المرء الأم . فهو ، بالتالي ، غير شاغر لاستقبال ملكة لسانية أخرى مغايرة :

« وانظر من تقدّم له شيء من العجمة ، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً . فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلّمه وعلّمه . وكذا البربري والرومي والافرنجي قلّ ان تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي . وما ذلك إلا لما سبق الى السنتهم من ملكة اللسان الآخر » . (المقدمة صفحة 1096- 1097) .

وقصور الأعجمي في مجال اكتساب اللغة لا يرتد الى أصله ، بل الى سبق

الملكة اللسانية العجمية عنده . وذلك لأنّ اكتساب اللغة مقدرة انسانية بصورة عامة ، ولا ترتبط بجنس الطفل أو بلونه . فابن خلدون يتنبه الى ذلك في ما يختص باكتساب اللغة العربية بالنسبة الى الأعاجم ، إذ يعتقد بأن الطفل الأعجمي ، حين يترعرع في البيئة العربية في سنين حياته الأولى ؛ بمقدوره أن يكتسب اللغة العربية :

« إلاّ أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها الى العربية ، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم ، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية » (المقدمة صفحة 1054) .

واضح إذاً ، أنّ الملكة اللسانية تتأصل في ذات المرء . وليس بالامكان نزعها واستبدالها بملكة أخرى مغايرة . فهي كما سبق أن قلناه ، صفة راسخة وتامة ومستأصلة عند صاحبها .

يُعمم ابن خلدون ملاحظاته هذه ويقرُّ المبدأ العام التالي :

« إنّ الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحلّ ، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة » (المقدمة صفحة 1088) .

يقدِّم ابن خلدون أكثر من مثل لدعم هذه المبدأ الذي توصل اليه في تحليله للملكة اللسانية . فعلى سبيل المثال ، يُلاحظ أنّ الأعجمي لا يستطيع أن يمتلك الملكة اللسانية في لغة العرب بشكل تام وان ابتعد ، في سبيل ذلك ، عن لسانه وقاطع لغته مقاطعة تامة :

« وإن فرضنا عجميّاً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلّية ، وذهب الى تعلّم هذه الملكة بالحفظ والمدارسة ، فربما يحصل له ذلك ، لكنه من الندور بحيث لا يخفي عليك بما تقرّر » (المقدمة صفحة 1088) .

مما لا شك فيه أنّ بمقدور الانسان أن يتعلّم لغة ثانية . إلا أن ملكته للغة الثانية تبقى ناقصة بعض الشيء وإن بلغ اتقانه للغة الثانية أقصى درجات الاتقان . وهذا أمر طبيعي عائد الى أنّ الملكة اللسانية الحقيقية تتم من خلال الترعرع ، بصورة طبيعية في البيئة . وهذه الملكة تتأصّل في ذات الانسان على نحو يؤثر في

كل عملية تعلّم لاحقة تختصّ بأية لغة أخرى . وهذه المسألة تعترف بها الألسنية التوليدية والتحويلية. ففي ظل هذه النظرية لا يُمكننا ، مثلاً ، الأخذ بالحدس اللغوي العائد الى متكلّم لغة معينة ما لم يكن المتكلم هذا قد اكتسب لغته بصورة طبيعية خلال ترعرعه في بيئة تتكلم هذه اللغة.

فعلى سبيل المثال ، نرفض الأخذ بالحدس اللغوي لمستشرق ما في ما يختص باللغة العربية ، وذلك من دون الأخذ بعين الاعتبار مدى اتقانه للغة العربية . بإمكاننا ، فقط ، الأخذ بحدسه اللغوي في ما يختص بلغته الأم فقط . نفس الأمر في ما يختص ،مثلاً، باللبناني الذي يكتب الفرنسية أو يعيش في باريس ويُتقن اللغة الفرنسية فليس بالإمكان قبول حدسه اللغوي في ما يتعلّق باللغة الفرنسية . فمهما بلغت معرفته باللغة الفرنسية فإنّ تعلّمه لهذه اللغة يبقى ، في رأينا ، مغايراً لإلمام الفرنسي اللاشعوري بلغته الأم . ومن الأهداف التي تضعها النظرية الألسنية نصب أعيننا في مجال تعليم اللغة الثانية، هدف إيصال المُتعلِّم الى كفاية لغوية تقارب، قدر الإمكان كفاية متكلم اللغة هذه كلغة أم . وذلك لأننا لا نستطيع الإقرار بإمكانية ايصال متعلم اللغة الثانية الى كفاية لغوية تامة فيها . وأهم مسألة نعاني منها في مجال تعليم اللغة الثانية هي مسألة التداخل بين اللغة الأم واللغة الثانية . وهذه المسألة تكوّن أهم المعيقات في مجال اتمام هذا التعليم على أفضل وجه » . فالملكة اللسانية الحقيقية لا تتم عند الانسان إلا مرّة واحدة وفي اللغة التي يترعرع فيها المرء .

وعى ابن خلدون هذه المسألة كما أنه وعى مسألة أهم منها لا بدَّ أن نتكلم عليها. هذه المسألة هي مسألة لغة التعليم بالنسبة لأفراد المجتمع . وهذه المسألة تطرح نفسها من منظار ألسني وتربوي ونفسي وإنساني . إنها مسألة الأقليات التي تعيش في بلد وتتكلّم لغة غير لغته أو لهجة متفرعة من لغته والتي ترى نفسها مجبرة على أن تتكيّف مع نظام تعليمي يعتمد لغة البلد الرسمية كلغة تعليم واحدة . فأهم عائق يعترضها هو العائق اللغوي .

6 ـ العجمة سبب تقصير في العلم

يُلاحظ ابن خلدون أنّ العجمة هي سبب تقصير في العلم . ويُخصص فصلاً كاملاً لهذه المسألة تحت عنوان : « في أنّ العجمة إذا سبقت الى اللسان قصرت

بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي » (المقدمة صفحة 1051 وما بعدها) .

بالإمكان تلخيص رأي ابن خلدون في هذا الفصل كما يلي :

تتكون مباحث العلوم من معان في الذهن والخيال . و« اللغة انما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني » فمن يمتلك اللغة يمتلك الدلالات العائدة الى العلوم « فإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ، ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني » . فالأعجمي الذي سبق أن امتلك لغته ـ يبقى مقصراً في امتلاك اللغة العربية . وذلك « لأنّ الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحلٍ فقلّ أن يجُيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى » وتقصير الأعجمي في اللغة العربية ينعكس ، بالتالي ، تقصيراً في العلم الذي يحُصِّله في اللغة العربية :

« والأعجمي المتعلّم للعلم في الملّة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق اليه ومن غير خطّه الذي يعرف ملكته . فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه » (المقدمة صفحة 1054 — 1055) .

ولا يغفل ابن خلدون عن لفت انتباه القارىء الى أنّ المقصود بالأعجمي هنا ، أعجمي اللغة وليس أعجمي النسب :

« ولا يعترض ذلك بما تقدَّم بأنّ علماء الاسلام أكثرهم العجم ، لأنّ المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قرّرنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم . أما عجمة اللغة فليست من ذلك ، وهي المرادة هنا » . (المقدمة صفحة 1054) .

إنّ ابن خلدون قد سبق الكثيرين في إيلاء مسألة لغة التعليم الأهمية البالغة العائدة اليها (12) . فهو في أكثر من مكان في مقدمته يُشير إلى أن لغة التعليم تكوِّن عائقاً أساسياً بالنسبة الى المتعلِّم حين لا يكون التعليم في لغته الأم . فيصرّ على التذكير بذلك :

« حتى أنّ طالب العلم من أهل هذه الألسن (البربري والفارسي والرومي والافرنجي) إذا طلبه بين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء

مقصّـراً في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى إلا من قبل اللسان »
(المقدمة صفحة 1097) .

غني عن الذكر أنّ مسألة اعتماد لغة تعليم مغايرة للغـة المجتـمع مـن أهم المسائل التي تطرح نفسها حالياً في مجال الألسنية التطبيقية . وهذه المسألة تعاني منها الدول النامية عامة وبخاصة بعض الدول العربية . وفكر ابن خلدون واضـح في هذا المجال . إنّ التعلّـم في لغة مغايرة للغة الأم يُعيق عملية التعلّـم . ولو عاش ابن خلدون في أيامنا هذه لكان أولى هذه المسألة اهتمامه ولكان أوّل من نادى بتعريب العلوم وتعديل نظام التعليم بحيث يتوفّـر التعليم ، كلّـياً وفي كل المستويات ، في اللغة الأم .

هوامش الفصل الخامس

(1) يهتم مجال السيكو ـ ألسنية أو علم النفس اللغوي بدراسة قضايا اكتساب اللغة وانتاج الكلام وتفهمه . وتكوّن السيكو ـ ألسنية مجال بحث واسع ومشترك بين الألسنيين وبين علماء النفس فتبحث في مسائل اكتساب اللغة والأمراض اللغوية وعلاقة اللغة بالفكر وبالذاكرة . وترتدي هذه الدراسات أهمية بالغة حالياً وخاصة من منظار النظرية التوليدية والتحويلية .

(2) إنّ المظهر الابداعي في اللغة أهم خاصة للغة الانسانية . ويتّصف المظهر الابداعي بمميزات التجدّد وتحرُّر الاستعمال اللغوي من كل ضابط وتماسكه في شتّى الظروف . لمزيد من الايضاح انظر ميشال زكريا(1980) صفحة 30 وما بعد .

(3) واضح أنّ ابن خلدون يرى أنّ اللغة ملك من يكتسبها ولا ترتبط ، بالتالي ، عملية اكتساب اللغة بالوراثة أو بالجنس .

(4) تشكل المدوّنة في المفهوم الألسني مجموعة جمل يفهمها كل متكلم اللغة وتحتوي ، في الواقع على عيّنات من اللغة يستقرأ الألسني القواعد من خلالها .

(5) في غياب الترعرع الطبيعي في بيئة اللغة العربية الفصيحة لا بد لمن يرغب في اكتساب اللغة العربية من اصطناع مناخ لغوي ملائم واتخاذ الطرق التي توصل الى إجادة الملكة اللسانية بقدر الإمكان من خلال العودة الى التراث الأدبي والشعري . فالملكة اللسانية التي كانت فطرة للعرب أصبحت تكتسب في مناخ لغوي مصطنع .

(6) ينصح ابن خلدون العاملين في مجال تدريس اللغة العربية اعتماد الكتب اللغوية التي تحوي نصوصاً كثيرة من كلام العرب من الشواهد الشعرية والأمثال على نحو يخدم عملية اكتساب الملكة اللسانية . فهو يرى ، على سبيل المثال ، أنّ كتاب سيبويه يحقق إفادة في مجال تدريس اللغة لما يحتويه من أمثلة وشواهد شعرية ، فما الذي يقوله ابن خلدون عن الكتاب ؟ :

> « . . . وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة ، فتجد العاكف عليه والمحصّل له ، قد حصل على حظّ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته . وتنبّه به لشأن الملكة ، فاستوفى في تعليمها ، فكان أبلغ في الإفادة » (المقدمة صفحة 1083) .

(7) لئن أردنا تقريب نظرية الاكتساب عند ابن خلدون من نظريات الاكتساب في مجال الألسنية فإننا نقول إنّ نظرية ابن خلدون تقف بين النظرية السلوكية عند سكينر وبين النظرية التوليدية والتحويلية عند تشومسكي . فابن خلدون يقارب أفكار سكينر من حيث التركيز على الممارسة والتكرار إلا أنه يتخطّاها باتجاه أفكار تشومسكي من خلال اعتبار عملية الاكتساب عملية وجدانية تمرّ بحالات نفسية الى أن تستقيم ملكة لسانية . بإمكان القارىء الذي يرغب في الإطلاع على نظريات الاكتساب اللغوي العودة الى ميشال زكريا(1980) صفحة 123 وما بعد .

(8) نوام تشومسكي(1977) صفحة 28

(9) لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا(1982) الفصل الثالث .

(10) نوام تشومسكي(1975) صفحة 14

(11) لمزيد من الإيضاح انظر ميشال زكريا(1984) الفصل الثالث .

(12) نشير في هذا المجال الى الدراسات الحالية التي تستأثر باهتمام الألسنيين امثال Bernstein . W. Labov :B

الفصل السادس

الظواهر الاجتماعية العائدة الى الملكة اللسانية

1 ـ ارتباط الملكة اللسانية بالعرف اللغوي الاجتماعي

يستعمل المتكلّم لغة المجتمع الذي نشأ وترعرع فيه . وتتطابق معها ملكته اللسانية لا شعورياً ومن دون أي تفكير في ذلك . فظواهر اللغة في البيئة شبيهة بظواهر العادات والتقاليد العرفية الأخرى . لذلك بالإمكان القول إنّ استعمال اللغة يندرج ضمن المظاهر الاجتماعية بل في الواقع ، هو مظهر اجتماعي بالغ الأهمية ينطبق عليه ما ينطبق على المظاهر الاجتماعية الأخرى . فيخضع ، في حدّ ذاته ، للعرف الاجتماعي العام . وغني عن الذكر أنّ العرف الاجتماعي يفرض على الاستعمال اللغوي قواعد كلامية خاصة به ، كما هو الحال بالنسبة الى مختلف أنواع السلوك السائدة في المجتمع .

ينبغي على الفرد ، لكي يعيش بصورة طبيعية ، ضمن مجتمعه ، أن يراعي ، في سلوكه الكلامي ، المظاهر الاجتماعية العرفية السائدة على صعيد لغة مجتمعه . من هنا نفهم ارتباط ملكته اللسانية بالعرف اللغوي الاجتماعي . ومن هذا المنطلق تعتبرُ اللغة ظاهرة اجتماعية تتحكّم فيها،الى حدٍّ ما، قواعد اجتماعية على صعيد التواصل داخل البيئة الواحدة . وكما أنّ من هذا المنطلق أيضاً ، ينبغي على الباحث في مجال اللغة أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة المهمة من حيث حياة اللغة في المجتمع وأن يُركّز اهتمامه على دراسة العرف اللغوي لبيئة معينة وتباينه مع العرف اللغوي لبيئة أخرى .

تحتوي اللغة الواحدة ، إلى حدّ ما ، على بعض اللهجات المتنوعة . تشترك هذه اللهجات في ما بينها بمواصفات شكلية هي التي تجعل منها بالذات لهجات

متنوعة . إلا أنها تبقى لهجات عائدة الى اللغة الواحدة أي انها تندرج ضمن لغة واحدة بالرغم من أنها تتضمّن ميزات خاصة بها تجعلها مختلفة بعضها عن بعض . وبالإمكان ردّ الاختلافات القائمة في ما بينها الى عوامل غير لغوية تندرج في معظمها ضمن العرف اللغوي الخاص بكل مجتمع وضمن ظروف اللغة وتطورها عبر مسارها التاريخي وتفاعلاتها في المجتمع . وهذه الاختلافات القائمة بين اللهجات العائدة الى لغة واحدة لا تمنع متكلميها من التوصّل الى التفاهم في ما بينهم ؛ مما يحافظ على الوحدة اللغوية عند متكلمي اللغة الواحدة وبين لهجاتها المتعددة .

وعى ابن خلدون المظاهر الاجتماعية العائدة الى اللغة . وفي ما يلي نحاول تتبع رأي ابن خلدون في هذه المسائل .

2 ـ علاقة اللغة بالدين والدولة

« إعلم أنّ لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ؛ ولذلك كانت لغات الأمصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد ، عربية . وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغيّر اعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الأمم . والدين والملّة صورة للوجود وللملك . وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة . وهي بلسان العرب ، لما أنّ النبيﷺ عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألبسن في جميع ممالكها » (المقدمة صفحة 675) .

تكوّن اللغة ، من منطلق انها وسيلة التواصل الانسانية ، الأداة الأساسية لتوحيد الأفراد والتجمعات البشرية في مجتمع واحد متماسك يتكلمها وتتيح لمتكلميها المشاركة في نظام الأمة . فعلى صعيد الأفراد بالذات تتخذ لغة الدولة الأهمية البالغة في حياتهم إذ هي ، بالنسبة اليهم ، المفتاح للدخول الى النظام القائم ولتحسين أوضاعهم وللعب دورهم الطبيعي في المجتمع .

من هنا نفهم أنّ لغة أهل الأمصار أيام ابن خلدون هي لغة العرب أو بالأحرى لغة الجيل المسيطر والحاكم . فأهل هذه الأمصار التي كانت تابعة للحكم

العربي وجدوا أنفسهم ، بطبيعة الحال ، في وضع يتحتّم عليهم فيه اتخاذ لغة الدولة لغة لهم والتخلي ، بالتالي تدريجياً ، عن لغتهم الأصلية وهجرها ومن ثم التكيّف مع وضعهم الجديد في عملية تواصلهم في المجتمع .

والجدير بالذكر أنّ اللغة العربية ، الى جانب أنها لغة الشعب المسيطر والغالب ، هي لغة الدين الاسلامي . فعبرها تمّت الدعوة الاسلامية وفي ظلها تمّ الفتح الاسلامي ولا مناص للداخلين في دائرة الحكم العربي الاسلامي من اتقانها :

« فلما هجر الدين اللغات الأعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربياً ، هجرت كلها في ممالكها لأنّ الناس تَبع للسلطان وعلى دينه : فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب » (المقدمة صفحة 675) .

إنه لأمر مسلّم به أن تُلزم الدولة العربية بشتى الوسائل ، السكان الذين أصبحوا مواطنيها ، بتعلّم اللغة العربية وتكلمها . وذلك لأنّ اللغة الواحدة تصون وحدة الدولة . ومعروف أنّ تعدّد اللغات قد يصبح عامل تفرقة في الدولة الواحدة لما قد يُثير من نزاعات لغوية . من هنا نفهم دعوة الخلفاء الى هجر اللغات غير العربية :

« واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم وقال : إنّها خبّ ، أي مكرٌ وخديعة » (المقدمة صفحة 675) .

إذاً هناك عاملان أساسيان في انتشار اللغة وسيطرتها في المجتمع . وهذان العاملان هما السلطة والدين . وقد لاحظ ابن خلدون أنّ عامل الدين أقوى بكثير من عامل السلطة في المحافظة على اللغة العربية . ولا يحتاج القارىء الى وقت طويل لملاحظة ذلك في كلام ابن خلدون التالي :

« ولما تملّك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللّذيْن بهما حُفظ الدين ، وصار ذلك

مرجحاً لبقاء اللغة المضرية من الشعر والكلام ، إلا قليلاً بالأمصار ، عربية » . (المقدمة صفحة 676) .

فبعد سيطرة العجم في المشرق ، والبربر في المغرب على مقومات الدولة العربية الاسلامية ، ضعفت اللغة العربية إلا أنها استطاعت البقاء ؛ وذلك بفضل تمسك المسلمين بالدين الاسلامي وبلغته العربية . وهذا ما يُفسّر ، في يقين ابن خلدون ، بقاء اللغة العربية في الأقطار التي سيطر عليها العجم والبربر وانتهائها في المناطق التي سيطر عليها في ما بعد التتر والمغول . وذلك لأنّ العامل الديني لم يعد قائماً للمحافظة على اللغة العربية في مناطق سيطرة التتر والمغول .

« فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ، ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح ، وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ، ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية ، بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم . . . . وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب ، لبقاء الدين طالباً لها فانحفظت بعض الشيء . وأما في ممالك العراق وما وراءه ، فلم يبق له أثر ولا عين » . (المقدمة صفحة 676 - 677) .

ما يهمنا هنا هو أنّ ابن خلدون قد حلّل دور الدين والسلطة في حياة اللغة وانتشارها . وأقرّ بأنّ هذين العاملين الاجتماعيين هما من أهم العوامل الاجتماعية الأساسية في حياة اللغة وانتشارها وتطورها . فعامل الدين يأتي ، في يقينه ، في المرتبة الأولى . ويأتي بعده عامل الملك والسلطة .

بقي القول إنّ ابن خلدون ، في معرض كلامه على انتشار اللغة العربية في البلاد التي امتدّ اليها الفتح العربي الاسلامي ، يُشير الى عامل آخر يُفسرّ سيطرة اللغة العربية على بقية اللغات ويُميزها عن غيرها . وهذا العامل هذه المرة ، عامل لغوي ذاتي . انه ، في رأي ابن خلدون ، ميزة الايجاز التي تختص بها اللغة العربية أكثر من بقية اللغات .

3 ـ الايجاز في اللغة العربية

يقول ابن خلدون في هذا الصدد :

« وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه ، فيجب أن تُعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته ، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدلُّ عليها بألفاظ تخصُّها بالوضع . وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفياتٍ ، في تراكيب الألفاظ وتأليفها ، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة اعراب . وقد يدلُّ عليها بالحروف غير المستقلَّة . ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدَّمناه ، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقلّ ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن .

وهذا معنى قوله ﷺ : «أُوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » (المقدمة صفحة 1073) .

يُعلِّق ابن خلدون أهمية كبرى على الخصائص التي ، في رأيه ، تجعل من اللغة العربية أوجز اللغات . ويرى في ذلك ميزة أساسية من ميزات اللغة عامة . وهو يعدِّد في أكثر من مكان من مقدمته هذه الخصائص :

« ألا ترى أنّ قولهم « زيد جاءني » مغاير لقولهم « جاءني زيدٌ » من قبل أنّ المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم . فمن قال : « جاءني زيدٌ » ، أفاد أنّ اهتمامه بالمجيء ، قبل الشخص المسند اليه ومن قال : « زيد جاءني ، أفاد أنّ اهتمامه بالشخص ، قبل المجيء المسند . وكذا التعبير عن أجزاء الجملة ، بما يناسب المقام ، من موصول أو مبهم أو معرفة . وكذا تأكيد الاسناد على الجملة ، كقولهم : زيدٌ قائمٌ ، وإنّ زيداً قائم ، وإنّ زيداً لقائم ، متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الاعراب ، فالأوّل العاري عن التأكيد إنما يُفيد الخالي الذهن ، والثاني المؤكّد بـ (إنّ) يُفيد المتردد ، والثالث يُفيد المنكر ، فهي مختلفة . . . » (المقدمة صفحة 1065) .

« واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى ابن عمر وقد قال له بعض النحاة : « إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم : زيدٌ قائمٌ ، وإنّ

زيدٌ قائم ، وإنّ زيداً لقائم والمعنى واحد » . فقال له : « إنّ معانيها مختلفة ، فالأوّل : لإفادة الخالي الذهن من قيام زيدٍ ، والثاني : لمن سمعه فتردَّد فيه ، والثالث : لمن عُرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال » (المقدمة صفحة 1073 -1074) .

إنّ النظرة الى اللغة العربية من زاوية انها أوجز اللغات ، نظرة متأصلة في فكر ابن خلدون اللغوي . والألسنية تُسمِّي ، حالياً ، هذه المسألة بمبدأ الاقتصاد في اللغة إلا أنها تنظر الى هذه المسألة نظرة أوسع من النظرة الضيقة التي نراها عند ابن خلدون . وذلك لأنّ ابن خلدون يرى أنّ الإيجاز خاصة للغة العربية . فمبدأ الاقتصاد مبدأ لغوي شامل ويظهر في كل لغة عبر كيفيات وأساليب متنوعة منها « الحروف غير المستقلة » (الاعراب) والتقديم والتأخير والمورفامات النحوية والحذف والعطف . . .

إنّ مبدأ الاقتصاد في اللغة يركِّز اهتمامه عليه الألسني الفرنسي أندره مارتينه [1] . الذي يحلِّل هذه الظاهرة عبر ربطها بعاملين انسانيين مختلفين يتجابهان بصورة دائمة : حاجات التواصل التي تفعل باتجاه التطور ونزعة الانسان الى التقليل من نشاطه العقلي والفيزيائي ، فحاجات الانسان المتجددة تتطلب دائماً ، استعمال المفردات الجديدة والمميزة في حين تنزع الطبيعة الانسانية الثابتة الى استعمال العدد القليل من المفردات العامة . من هنا تلجأ اللغات الى إيجاد الأساليب وطرق الاشتقاقات التي تقتصر في النهاية من الإطالة في الكلام والاكثار من المفردات :

ما يهمنا لفت الانتباه اليه ، هنا ، هو أنّ ابن خلدون أولى مسألة الاقتصاد في اللغة اهتمامه فأشار الى خاصة الإيجاز إلا أنّه حصر هذه المسألة في اللغة العربية فأبعده ذلك عن التوسُّع في تحليل هذه المسألة .

4 ـ لغة أهل الجيل[2] مغايرة للغة مضر[3]

لاحظ ابن خلدون ، في ما لاحظه ، أنّ لغته المعاصرة لم تعد هي هي لغة مضر [2] . بل تطورت نتيجة عوامل تاريخية واجتماعية بالذات . وهو يُلفت نظر قارئه الى الواقع اللغوي في عهده :

« إعلم أنّ ملكة اللسان المضري ، لهذا العهد قد ذهبت وفسدت .

ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نُزِّل بها القرآن ، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدَّمناه » (المقدمة صفحة 1080) .

إذاً لغة عصر ابن خلدون لغة مغايرة للغة مضر . وهذا التغاير ناجم عن اختلاط العرب بالعجم . فإبن خلدون ، كعادته ، يصف ما يتكلَّم عليه ، الوصف الدقيق . ومن ثم يقدم التفاسير مورداً الأسباب والتعليلات . فالاختلاط من العوامل الأساسية التي تطور اللغة عبر مسارها التاريخي . فالاختلاط كما العزلة ، عوامل اجتماعية مؤثرة في مسار اللغة . فالعزلة من العوامل التي تصون اللغة وتحافظ على نقائها الأوّل وخصائصها الأولى :

« ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم » . (المقدمة صفحة 1072) .

في حين أنّ الاختلاط يدخل الى اللغة بعض التغيرات والتبدلات :

« وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجزام وغسَّان وإيّاد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية » . (المقدمة صفحة 1072) .

وبقدر كثرة الاختلاط بقدر ما ينجم عن الاختلاط تبدُّل في خصائص اللغة وقوانينها الذاتية على نحو يُظهرها وكأنها أصبحت لغة جديدة :

« واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأوَّل ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار . وتجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي » (المقدمة صفحة 1088) .

إنّ لغة العصر هي ، في الواقع ، لغة مضر إلا أنها تطوَّرت بعض الشيء خلال

مسارها الطبيعي وحصل بعض التبدّل في قوانينها . وهذا أمر طبيعي . فاللغة كائن حي يتطور وفق التطور الذي يحصل في المجتمع الذي يتكلمها ونسبة للاحداث الطارئة عليه . وتطور اللغة لا يعني قيام لغة أخرى إنما اللغة تبقى هي هي مع بعض التطورات الحاصلة لها .

يصرّ ابن خلدون على التأكيد أنّ الأساليب العربية في اللغة العربية لا تزال على ما كانت عليه :

« فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى . والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم . . . .

ولم يفقد من أحوال اللسان المدوّن الا حركات الاعراب في أواخر الكلم » (المقدمة صفحة 1074) .

جلّ ما في الأمر أنّ الحركات الاعرابية قد فقدت . وقد استعيض عنها بالموقع وبقرائن معيّنة :

« وذلك انا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول ، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد » (المقدمة صفحة 1073) .

أدرك ابن خلدون أنّ لغة أهل جيله لم تعد تلجأ الى قاعدة الحركات الاعرابية للدلالة على الوظائف الكلامية . بل أصبح الموقع هو الذي يُحدِّد الوظائف . وقد دعا ابن خلدون الى الاعتناء بهذه المسألة واستخراج القوانين الجديدة في الدلالة على الوظائف اللغوية :

« ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه ، نعتاض عن الحركات الاعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصّها . ولعلّها تكون في أواخره على غير المنهاج الأوّل في لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتها مجاناً » (المقدمة صفحة 1075) .

لا بد إذاً للعاملين في مجال البحث اللغوي ، من إستقراء القوانين المستجدة ومواكبة التطور الحاصل في اللغة . فالملكة اللسانية تتضمن قوانين تخصها وهذه القوانين ليست جامدة كما يعتقد البعض . ولا بد من استقراء هذه القوانين لمزيد من الإلمام باللغة وبمسائلها .

الجدير بالذكر ، هنا ، أنّ ابن خلدون يدرك أنّ اللغة تتطور من جيل الى آخر فتظهر تغيرات وانحرافات من خلال تعديل بعض قوانينها. ويستتبع ذلك ، بالضرورة ، تغير القواعد التي يراعيها المتكلم ، والتزام المتكلّم ، بطبيعة الحال ، بالواقع اللغوي الجديد .

تجاه هذا الواقع ، يلتزم ابن خلدون بهذا التغيّر الحاصل ولا يفترض في اللغة الجمود فيرفض ، بالتالي ، تجميد الدراسة اللغوية . ويدعو الى استقراء الكيفيات المستحدثة في لغة عصره وإلى الالتزام بها في إطار استعمال اللغة .

5 ـ لغة التخاطب في الأمصار متمايزة في ما بين الأمصار

أفرد ابن خلدون مكاناً بارزاً في مقدمته للكلام على اللهجات العربية في عصره . وقد لاحظ اختلاف اللهجات في ما بينها ، كما أنه أشار الى أنّ لغة التخاطب اليومي هي لغة مغايرة للغة مضر وللغة أهل جيله » . وقد تبدو اللهجة لغة أخرى . فهو يقول في هذا الصدد :

> « وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم ، تُخالف لغة مضر . ويخُالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما يشاء ويقدر » . (المقدمة صفحة 1080) .

من الطبيعي القول إنّ لغة التخاطب أو اللهجة قد استحكمت ملكتها في متكلمها ، وذلك لأنّ الطفل يكتسب ، في الواقع ، ملكة لسانية في اللغة التي يتكلمها المجتمع الذي يترعرع فيه . أي في الحقيقة ، يكتسب ملكة لسانية في لغة التخاطب أو اللهجة . ومن ثم ينتقل بواسطة عملية تعلّم من الملكة اللسانية في اللهجة الى ملكة لسانية في اللغة الفصحى . ويتمّ هذا الانتقال بسهولة لأنّ اللهجة واللغة الفصحى هما شكلان للغة الواحدة . فاللهجة هي اللغة العربية في شكلها

المحكي العامي ؛ في حين أنّ اللغة الفصحى هي اللغة العربية في شكلها المكتوب المشترك . وقد لاحظ ابن خلدون أنّ أهل الأمصار يتكلمون لهجات متنوعة وكل منهم يُعبر بواسطة لهجته عن متطلباته الحياتية اليومية :

« إعلم أنّ عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل ، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا ، وهي عن لغة مضر أبعد » (المقدمة صفحة 1078) .

إذاً عرف التخاطب في الأمصار ليس بلغة مضر ولا بلغة أهل الجيل . واستعمال ابن خلدون لكلمة « عُرف » ليس بالمصادفة هنا . فكون ابن خلدون عالماً اجتماعياً فهو يعتبر أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من أنواع السلوك الاجتماعي الأخرى . فاستعمال اللغة يتلاءم مع العرف اللغوي القائم في البيئة . وفي كل مجتمع تتكون مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي تتحكّم فيه والتي يلتزم بها أفراد المجتمع ويراعونها . فيتوافق سلوكهم مع العرف المجتمعي السائد . ومتكلم اللغة يستعمل لغة المجتمع الذي ترعرع فيه وينسجم ، بالتالي ، مع عرف التخاطب السائد في مجتمعه .

يلاحظ ابن خلدون ، أيضاً ، أنّ لغة التخاطب أو اللهجة تُظهر تقارباً مع لغة أهل الجيل أكثر منه مع لغة مضر . وذلك يرتد لعامل التخالط مع غير العرب . وما يلفت انتباهنا ، هنا ، أنّ ابن خلدون ينظر الى لغة التخاطب من حيث إنها لغة قائمة بذاتها :

« فإما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً . وهي مع ذلك تختلف باختلاف أهل الأمصار في إصطلاحاتهم ، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب . وكذا أهل الأندلس معهما . وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الاعراب ليس بضائر لها كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد » . (المقدمة صفحة 1079) .

إنّ لغة التخاطب أو اللهجة أو الشكل المحكي للغة ، لغة قائمة بنفسها إذ انها تختلف عن اللغة الفصحى وتستعمل كوسيلة تواصل مثلها مثل اللغة الفصحى . والجدير بالذكر هنا أن ابن خلدون لا يحصر الدراسة اللغوية بدراسة اللغة فقط في شكلها المكتوب . بل هو يرى أنّ اللغة ، في شكلها الذي يتكلمه الانسان بصورة عفوية والتي تختلف عن اللغة في شكلها المكتوب ؛ بالإمكان دراستها . وموقف ابن خلدون من اللغة المحكية ، موقف علمي صائب . فهو يعتبر لغة التخاطب لغة جيدة لأنها تقوم بوظيفتها كأداة تواصل على أكمل وجه . فالبحث في اللغة لا يقتصر ، في رأيه ، على شكل اللغة المكتوب من دون شكلها المحكي ، كما اعتقد النحاة العرب ، بل نراه يولي الشكل المحكي اهتمامه أيضاً .

لاحظ إذاً ابن خلدون التخالف القائم بين اللغة الفصحى وبين اللهجات من جهة ، وبين اللهجات في ما بينها من جهة أخرى . وقد لَمح الى وجود الاختلافات هذه في المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي . يقول في هذا الصدد :

« فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد . واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق ، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما ، أيضاً ، لغة أهل الأندلس وأمصاره (المقدمة صفحة 1124) .

فالتخالف بين اللهجات في ما بينها وبينها وبين الفصحى يظهر في مستويات اللغة وبخاصة في مجال الاعراب وبناء الكلمات والتصاريف . وقد لاحظ ابن خلدون بعض التباين في مستوى النطق بالفونامات .

« ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد ، حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف ، فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار ، كما هو مذكور في كتب العربية ، انه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى . وما ينطقون بها أيضاً من مخرج

الكاف ، وإن كان اسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي ، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف » (المقدمة صفحة 10/6) .

فأهل الجيل العربي لعهد ابن خلدون ينطقون بالفونام / ق / على نحو مغاير لما قد وصلنا من وصف مخارج القاف في كتب النحويين القدامى وطريقة النطق بالقاف تُميِّز ، في الواقع ، بين لغة الأمصار وبين لغة أهل الجيل العربي البدوي :

« **والظاهر أنّ هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي** هو من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة ، وأنّ مخرج القاف متّسع ، فأوّله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف . فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار ، والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي » (المقدمة صفحة 1077) .

وفي المستوى التركيبي للغة أو النحو يظهر التباين بين الفصحى واللهجات في ما يختص بحركات الاعراب فاللهجات لا تأخذ بقوانين الاعراب :

« وذلك أنا نجدها (لغة العرب لهذا العهد) في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيُّن الفاعل من المفعول » (المقدمة صفحة 1073) .

«ولم يفقد من أحوال اللسان المدوَّن الا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط » (المقدمة صفحة 1074) .

« فأما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعُد عن صناعة النحو ، لحناً » (المقدمة صفحة 1079) .

وفي مستوى الدلالات تُظهر اللهجات أيضاً بعض التباين :

« واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق » (المقدمة صفحة 1124) .

إلّا أنّ ابن خلدون يستدرك في هذا المجال ، إذ يُلاحظ أن الكثير من الكلمات حافظت على معانيها :

« وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى » (المقدمة صفحة 1074) .

فبالرغم من تباين اللهجات الظاهر ، يلاحظ ابن خلدون أن اللهجات المتنوعة تحتوي على الكثير من الألفاظ المشتركة بينها وبين اللغة الفصحى. مما يؤكِّد أنها لهجات عائدة الى لغة واحدة .

6 ـ اللهجات والأدب

ينجم عن اختلاف اللهجات بعض التباين في الذوق الأدبي . فالانسان يدرك ، في رأي ابن خلدون ، بلاغة لغته ويتذوق شعر أفراد بيئته . لذلك يلاحظ ابن خلدون أنّ لتعدُّد اللهجات تأثير في إدراك البلاغة وتذوق الشعر :

« واعلم أنّ الأذواق كلها في معرفة البلاغة انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، حتَّى يحُصِّل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية . فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب ، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق ؛ ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب . لأنّ اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته . « وفي خلق السماوات والأرض اختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين » . (المقدمة صفحة 1168 -1169) .

إنّ المرء يتذوق ادب محيطه ويتفاعل مع لغته بما فيها اللغة في شكلها المحلي أي اللهجة . وتعدد اللهجات العربية في العالم الذي يتكلم اللغة العربية قد نوَّع في بعض الأساليب الشعرية والأشكال الشعرية في ما يسمَّى بالشعر العامي :

« ولما شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً » (المقدمة صفحة 1153) .

« وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فنّ العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة

عشر ، ولكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلي » (المقدمة صفحة 1157) .

هنا أيضاً ، يلاحظ ابن خلدون أنّ أهل الأمصار يتواصلون بواسطة لهجتهم ؛ كما يُلاحظ أنهم يؤلفون الشعر بلغتهم العامية من دون أن يكون غياب الاعراب عن اللهجة عائقاً لهم في مجال النظم الشعري . فأهل الأندلس ينظمون الشعر الزجلي بلغتهم العامية . وكذلك أهل المغرب الذين استحدثوا نوعاً آخراً من الشعر العامي :

« ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنّاً آخر من الشعر ، في أعاريض مزدوجة كالموشّح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسمّوه عروض البلد » . (المقدمة صفحة 1160) .

يُلاحظ ابن خلدون أنّ أهل تونس قد استحدثوا أيضاً نوعاً من الشعر ينظمونه بلغتهم العامية :

« أما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبة أيضاً على لغتهم الحضرية . إلاّ أنّ أكثره رديء » . (المقدمة صفحة 1166) .

والأمر نفسه يلاحظه ابن خلدون في المشرق :

« وكان لعامة بغداد أيضاً فنّ من الشعر يسمونه المواليا ، وتحته فنون كثيرة يسمون منها القوما ، وكان وكان ، ومنه مفرد ومنه في بيتين ، ويسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان . وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب ، وتجردوا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاؤوا بالعجائب » . (المقدمة صفحة 1166) .

مما سبق يتبين أنّ ابن خلدون يتناول اللهجات بشكل موسّع ؛ كما أنه لا يغفل عن ذكر استعمال اللغة العامية في مجال الشعر . فيتطرّق للشعر العامي في مختلف الأقطار العربية . وهو ينظر الى ذلك من منظار ملاءمة اللهجة لمتطلبات التواصل والشعر .

هوامش الفصل السادس

(1) انظر أندريه مارتينيه(1960) صفحة176 وما بعد .

(2) يطلق ابن خلدون على لغة عصره « لغة أهل الجيل » ، ولغة العرب لهذا العهد » .

(3) لغة مضر هي اللغة العربية الفصحى التي نجد وصفها في كتب اللغويين القدامى . وهي اللغة الرسمية التي رافقت الفتح العربي الإسلامي .

(4) يستعمل ابن خلدون عبارة « لغة أهل الحضر والأمصار » للدلالة على لغات التخاطب العامية التي تختلف من بلد إلى آخر . فهي في المشرق تخالف لغة المغرب كما تختلف في المغرب والمشرق عن الأندلس .

الخاتمة

حاولنا قدر المستطاع في دراستنا هذه ، استخلاص ما ورد في مقدمة ابن خلدون من أصالة فكرية لغوية تجدّد المفاهيم المعمول بها في منهجية البحث اللغوي العربي . وقد ذهبنا في دراسة الآراء اللغوية المتطورة في مقدمة ابن خلدون مذهباً مغايراً من حيث المنهج الذي اتّبعناه والهدف الذي وضعناه نصب أعيننا ؛ إذ انتهجنا منهجية إعادة قراءة المقدمة قراءة نقدية على ضوء علم الألسنية وسعينا إلى إظهار الآراء اللغوية المتطورة التي وردت في المقدمة .

ركّزنا اهتمامنا على مفهوم الملكة اللسانية . ومن خلال هذا المفهوم أظهرنا التقارب بين آراء ابن خلدون اللغوية وبين بعض المفاهيم المعمول بها في ظل النظريات الألسنية مما يدلّ على بعد نظر ابن خلدون بالنسبة الى قضايا اللغة التي تناولها في مقدمته .

أحاط ابن خلدون بمسائل ألسنية متعددة في مجال تحديد اللغة ، كما أنه وعى أنّ الملكة اللسانية هي الموضوع الأساسي للدراسة اللغوية . فتناول اللغة من حيث هي ملكة راسخة عند الانسان يكتسبها من خلال ترعرعه في بيئة معيّنة ويتعلمها بممارسة اللغة وعبر تكرار هذه الممارسة . وقد تتبّعنا معالم الملكة اللسانية في نظره وتناولنا المظاهر القواعدية والنفسية والاجتماعية العائدة اليها وذلك كما بدت لنا في « المقدمة » .

ما سعينا قط الى اعتبار ابن خلدون في مقدمته رائداً لعلم الألسنية . فهذا الأمر يُبعدنا عن الحقيقة الموضوعية ويوقعنا في الذاتية . جلّ ما هدفنا اليه هو ربط فكره اللغوي بالفكر الألسني العام من خلال تبيان أنّه تحسّس بحدسه العلمي ، بعض

المسائل الألسنية وتناولها بدقّة علمية لا تبتعد كثيراً عن الدقّة العلمية في المنهجية الألسنية . فهو لم يكن عالماً ألسنياً بمفهومنا الحديث للألسنية . إنما أعمل فكره في معالجة قضايا اللغة فأتى بآراء وأفكار متطورة في مجال تحليل اللغة تقارب بعض الآراء والأفكار الألسنية .

وفي ختام بحثنا هذا ارتأينا لمزيد من توضيح فكر ابن خلدون اللغوي ، تقديم مختارات متفرقة من « المقدمة » تساعد القارىء على تلمّس الآراء اللغوية المتطورة عند ابن خلدون .

نصوص مختارة

من مقدمة أبن خلدون

- 1 -

في لغات أهل الأمصار

إعْلَمْ أنَّ لُغاتِ أهلِ الأمصارِ إنما تكونُ بلسانِ الأُمَّـةِ ، أو الجيلِ الغالبينَ عليها أو المختَطِّينَ لها ؛ ولذلك كانت لغاتُ الأمصارِ الإسْلاَمِيَّـةِ كلُّـها بالمشرقِ والمغربِ لهذا العهدِ عربيَّـةً ، وإن كان اللسانُ العربيُّ المضَرَيُّ قد فُسـدَتْ مَلَكَتُـهُ وتغيَّـر إعرابُهُ . والسبَبُ في ذلك ما وقعَ للدولةِ الإسْلاميَّـةِ من الغَلَبِ على الأُممِ ، والدين والملة صورةٌ للوجودِ وللمُلْكِ . وكلُّـها موادُّ له ، والصورةُ مقدَّمَةٌ على المادَّةِ ؛ والدِينُ إنما يُستفادُ من الشريعَةِ ، وهي بلسانِ العربِ ، لما أنَّ النبيَّ ﷺ عربـيٌّ ؛ فوجبَ هجرُ ما سوى اللسانِ العربيِّ من الألسُنِ في جميعِ ممالكها . واعتبِرْ ذلك في نهي عمرَ رضي الله عنه عن رطانـةِ الأعاجـمِ ، وقـال : إنهـا خِبٌّ ، أي مكرٌ وخديعةٌ . فلما هجرَ الـدينُ اللغـاتِ الأعجميةَ ، وكان لسـانُ القائمـينَ بالدولَـةِ الاسلاميَّـةِ عربياً ، هُجِرَت كلُّـها في جميع ممالكها ؛ لأنَّ الناسَ تَبَعٌ للسُّلطانِ وعلى دينِهِ ، فصار استعمالُ اللسانِ العربيِّ من شعائرِ الاسلامِ وطاعةِ العربِ . وهجـرَ الأُمَمُ لغاتِهِـم وألسنَتَهُـم في جميعِ الأمصـارِ والممالِكِ . وصـارَ اللّـسـانُ العرَبـيُّ لسانهم ، حتى رسـخ ذلك لغـةً في جميع أمصارِهِـم ومدُنِهِـم ، وصـارت الألسنَـةُ العجميَّـةُ دخيلةً فيها وغريبةً . ثم فسُدَ اللسانُ العربيُّ بمخالطتها في بعض أحكامِهِ وتغيُّـر أواخره ، وإن كانَ بقيَ في الدَّلالاتِ على أصله ، وسُمِّـيَ لساناً حضريّـاً في جميعِ أمصارِ الإسلامِ .

وأيضاً فأكثرُ أهلِ الأمصارِ في المِلَّـةِ لهـذا العهـدِ ، من أعقـابِ العَـرَبِ ،

المالكينَ لها ، الهالكينَ في تَرَفِها ، بما كثَّروا العجمَ الذين كانوا بها وورثوا أرضَهم وديارَهُم . واللغاتُ متوارثَةٌ ، فبقيت لغةُ الأعقابِ على حِيالِ لُغةِ الآباء ؛ وإن فسُدَتْ أحكامُها بمخالطَةِ الأعجام شيئاً فشيئاً . وسُمِّيَت لغتُهُمْ حَضرَيَّةً منسوبةً إلى أهلِ الحواضِرِ والأمصارِ ، بخلافِ لغةِ البدوِ من العَرَب ؛ فإنها كانت أعرقَ في العُروبيَّةِ . ولما تملَّكَ العَجَمُ من الدَّيْلَم والسَّلْجوقيَّةِ بعدَهُم بالمشرق ، وزَناتَةُ والبربَرُ بالمغربِ ، وصارَ لهم الملكُ والاستيلاءُ على جميعِ الممالكِ الاسلاميَّةِ ، فسُدَ اللسانُ العربيُّ لذلك ؛ وكاد يذهبُ لولا ما حفِظَهُ من عنايَةِ المسلمينَ بالكِتابِ والسُنَّةِ اللذَيْنِ بهما حُفِظَ الدِينُ ، وصار ذلك مُرَجِّحاً لبقاءِ اللغةِ المُضرَيَّة من الشِّعرِ والكلامِ ، إلا قليلاً بالأمصارِ ، عَرَبيَّةً . فلما ملكَ التَتَرُ والمغولُ بالمشرقِ ، ولم يكونوا على دين الاسلامِ ذهبَ ذلك المرجِّحُ ، وفسُدَتِ اللغةُ العربيَّةُ على الاطلاقِ ، ولم يبقَ لها رسمٌ في الممالكِ الاسلاميةِ ، بالعراق وخُراسانَ وبلادِ فارِسَ وأرضِ الهندِ والسندِ وما وراءَ النهرِ ، وبلادِ الشمالِ ، وبلادِ الرومِ ؛ وذهبَتْ أساليبُ اللغَةِ العربيَّةِ من الشِّعرِ والكلامِ ، إلا قليلاً يقَعُ تعليمُه صِناعِيًّاً بالقوانين المتدارَسَةِ من علوم العرب ، وحفظ كلامهم لمن يسَّره اللهُ تعالى لذلك . وربما بَقيتِ اللغَةُ العربيَّةُ المُضرَيَّةُ بمصرَ والشامِ والأنْدَلُسِ والمغربِ ، لبقاء الدينِ طالباً لها ؛ فانخفضت بعضَ الشيءِ . وأما في ممالكِ العراقِ وما وراءَه ؛ فلم يبقَ لهُ أثرٌ ولا عينٌ ، حتى أن كُتُبَ العلومِ صارت تُكتَبُ باللسانِ العَجَمِيِّ ، وكذا تدريسُهُ في المجالس . والله أعْلَمُ بالصَّواب . واللهُ مقدِّرُ اللَّيلَ والنهار . صلى اللهُ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله ربِّ العالمين .

(المقدمة صفحة675 -677) .

- 2 -

في أنّ من حصلت له ملكة في صناعة فقلَّ أنّ يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثالُ ذلك الخياطُ إذا أجادَ مَلَكَةَ الخِيَاطَةِ وأحكَمَهَا ، ورَسَخَتْ في نفسِه ، فلا يُجيدُ من بعدِها مَلَكَةَ النِّجَارَةِ أو البناءِ ؛ إلا أن تكون الأُولى لم تستحكِم بعد ولم ترسُخْ صِبْغَتُها . والسبَبُ في ذلكَ أنَّ المَلَكَاتِ صِفاتٌ للنفسِ وألوانٌ ؛ فلا تزدَحِمُ دفعةً . ومَن كانَ على الفطرَةِ كانَ أسْهَلَ لقبولِ المَلَكَاتِ وأحسَنَ استعداداً لحصولها . فإذا تَلَوَّنَت النفسُ بالمَلَكَةِ الأُخرى وخرجت عن الفِطرةِ ضَعُفَ فيها الاستعدادُ باللونِ الحاصِلِ من هذه المَلَكةِ ، فكانَ قبولُها للمَلَكةِ الأُخرى أضعفَ . وهذا بيِّنٌ يشهَدُ له الوجودُ . فقلَّ أن تجدَ صاحبَ صناعَةٍ يُحكِمُها ، ثم يُحكِمُ من بعدِها أخرى ، ويكون فيهما معاً على رُتبةٍ واحدةٍ من الإجادَةِ . حتى إنَّ أهلَ العلمِ الذينَ مَلَكَتُهُمْ فِكْرِيَّةٌ فهم بهذه المثابَةِ . ومن حَصَلَ منهم على مَلَكَةِ علمٍ من العلومِ وأجادَها في الغايَةِ ؛ فقلَّ أن يجيدَ مَلَكَةَ علمٍ آخر على نسبَتِهِ ؛ بل يكونُ مقصِّراً فيه إنْ طَلَبَهُ ؛ إلا في الأقلِّ النادِرِ من الأحوالِ . ومبنيٌّ سببُهُ على ما ذكرناهُ من الاستعدادِ وتلوينهِ بلونِ المَلَكةِ الحاصِلَةِ في النفسِ . واللهُ سبحانُه وتعالى أعلَمُ ، وبهِ التوفيق ، لا ربَّ سواه .

(المقدمة صفحة 721 -722) .

- 3 -

في أنّ الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهوَ رسومٌ وأشكالٌ حرفيَّةٌ تدلُّ على الكلماتِ المسموعَةِ الدالةِ على ما في النفسِ . فهوَ ثاني رتبةٍ عن الدلالةِ اللغويَّةِ ، وهو صناعةٌ شريفةٌ ، إذ الكتابةُ من خواصِّ الانسانِ التي يُميَّزُ بها عن الحيوانِ . وأيضاً فهي تُطلِعُ على ما في الضمائرِ وتتأدّى بها الأغراضُ إلى البلَدِ البعيدِ ، فتُقضى الحاجاتُ ، وقد دُفِعَتْ مؤ ونَةُ المباشرةِ لها ، ويُطَّلعُ بها على العلومِ والمعارفِ وصُحُفِ الأوَّلينَ ، وما كتبوهُ في علومِهِم وأخبارِهِم ، فهي شريفةٌ بجميع هذه الوجوهِ والمنافعِ . وخروجُها في الإنسانِ من القُوَّةِ إلى الفعلِ إنما يكون بالتعليم ، وعلى قَدَرِ الاجتماعِ والعمرانِ والتناغي في الكمالاتِ والطَّلَبِ لذلك ، تكونُ جودةُ الخطِّ في المدينةِ إذ هو من جملةِ الصنائعِ . وقد قدَّمنا أنَّ هذا شأنُها وأنها تابعةٌ للعُمرانِ ، ولهذا نجدُ أكثرَ البدوِ أمّيينَ لا يكتبونَ ولا يقرأونَ ، ومن قرأ منهم أو كتبَ فيكونُ خطُّهُ قاصراً وقراءتُهُ غيرَ نافذةٍ . ونجدُ تعليمَ الخطِّ في الأمصارِ الخارجِ عمرانُها عن الحدِّ أبلغَ وأحسَنَ وأسهلَ طريقاً ، لاستحكامِ الصنعةِ فيها . كما يُحكى لنا عن مِصرَ لهذا العهدِ ، وأنَّ بها معلِّمينَ مُنْتَصِبِينَ لتعليمِ الخطِّ يُلقونَ على المتعلِّمِ قوانينَ وأحكاماً في وضعِ كلِّ حرفٍ ، ويزيدونَ الى ذلك المباشرةَ بتعليمِ وضعِهِ ، فتعتضِدُ لديهِ رتبةُ العلمِ والحسِّ في التعليمِ ، وتأتي مَلَكَتُهُ على أتمِّ الوجوهِ .

وإنَّما أتى هذا من كمالِ الصنائعِ ووفورِها بكثرةِ العمرانِ وانفساحِ الأعمالِ . وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلُّم كل حرف بانفراده ، على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم ، وإنما يتعلم بمحاكاة الخطِّ من كتابة الكلمات جملة . ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له ، إلى أن يحصل له الاجادة ويتمكن في بنانه الملكة ؛ فيسمى مجيداً . وقد كانَ الخطُّ العربيُّ بالغاً مبالغَهُ من الإِحكامِ والإِتقانِ والجَوْدَةِ في دولةِ التبابعَةِ ، لما بلغت من الحِضارةِ والتَّرفِ ، وهو المسمى بالخطِّ الحِمْيَرِيِّ . وانتقل منها إلى الحيرةِ لما كانَ بها من دولةِ آلِ المنذِرِ نُسَباءِ التبابعَةِ في العصبيَّةِ ، والمجدِّدينَ لمُلْكِ العربِ بأرضِ العراقِ . ولم يكن

الخطُّ عندهم من الاجادَةِ كما كان عندَ التبابعَةِ ، لقصورِ ما بينَ الدولتين . فكانت الحضارَةُ وتوابعُها من الصنائِعِ وغيرها قاصرةً عن ذلك . ومن الحِيرةِ لُقِّنَـهُ أهـلُ الطائفِ وقريشٌ فيما ذكر . ويقالُ : إنّ الذي تعلّـم الكتابةَ من الحِيرةِ هو سُفيانُ بنُ أميَّـةَ ويُقالُ حربُ بن أميَّةَ ، وأخذَها من أسلـمَ بن سدرةَ . وهـو قولٌ ممـكنٌ ، وأقربُ ممن ذهبَ الى أنهم تعلّـموها من إيادَ أهلِ العراقِ لقول شاعرهم :

قَومٌ لَهُمْ ساحَةُ العِرَاقِ ، إذا ساروا جَميعاً ، والخَـطُّ والقَلَمُ

وهو قولٌ بعيدٌ ، لأنَّ إياداً ، وإن نزلوا ساحةَ العراقِ ؛ فلم يزالوا على شأنهم من البِدَاوَةِ . والخطُّ من الصنائع الحَضَرِيَّـةِ . وإنما معنى قولِ الشاعرِ أنهم أقربُ الى الخطِّ والقلمِ من غيرهم من العرب ، لقُربهم من ساحـةِ الأمصـارِ وضَواحيهـا ؛ فالقولُ بأنَّ أهلَ الحجازِ إنما لُقِّـنوها من الحِيرَةِ ، ولُقِّـنها أهلُ الحِيرةِ من التبابعةِ وحميرَ هو الأليقُ من الأقوالِ .

(المقدمة صفحة 744- 746)

- 4 -

في أنّ الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتابِ أنَّ النفس الناطِقَةَ للانسانِ ، إنما توجدُ فيه بالقوَّةِ . وأنَّ خروجَها من القوَّةِ إلى الفعل إنما هو بتجدُّدِ العُلومِ والإدراكاتِ عن المحسوساتِ أوَّلاً ؛ ثم ما يُكتسَبُ بعدها بالقوَّةِ النظريَّـةِ إلى أن يصيرَ إدراكاً بالفعْلِ وعقلاً محضاً ؛ فتكون ذاتاً روحانيَّـةً وتَسْتَكْمِلُ حينئذٍ وجودَها . فوجبَ لذلك أن يكونَ كلُّ نوعٍ من العِلمِ والنَظَرِ يفيدُها عقلاً مزيداً ، والصنائعُ أبداً . يحصُلُ عنها وعن مَلَكتِها قانونٌ علميٌ مُستفادٌ من تلك المَلَكَةِ . فلهذا كانت الحُنكةُ في التجربَةِ تفيدُ عقلاً ، والملكاتُ الصِنَاعيَّـةُ تفيدُ عقلاً ؛ والحِضارةُ الكامِلَةُ تفيدُ عقلاً ؛ لأنها مجتمعَةٌ من صنائعَ في شأنِ تدبيرِ المنـزلِ ، ومعـاشرةِ أبنـاءِ الجنس ، وتحصيلِ الآدابِ في مخالطتهم ؛ ثم القيامِ بأمورِ الدينِ واعتبارِ آدابها وشرائطِها . وهذه كلُّـها قوانـينُ تنتظِمُ علوماً ، فيحصُلُ منها زيادَةُ عقلٍ .

والكتابةُ من بينِ الصَّـنائعِ أكثرُ إفـادةً لذلك ، لأنهـا تشتَمِـلُ على العُلـومِ والأنظارِ بخلافِ الصنائعِ . وبيانُه أنَّ في الكتابةِ انتقالاً من الحروفِ الخطيَّـةِ إلى الكلِماتِ اللفظيَّـةِ في الخيال ؛ ومن الكلماتِ اللفظيَّـةِ في الخيالِ إلى المَعاني التي في النفسِ ؛ فهو ينتقل أبداً من دليلٍ إلى دليلٍ ، ما دام ملتبساً بالكتابة وتتعَوَّدُ النفس ذلك دائماً . فيحصُلُ لها ملكةُ الانتقال من الأدلَّـةِ إلى المدلولاتِ ، وهو معنى النظرِ العَقليِّ الذي يَكتَسِبُ بِهِ العُلومَ المجهولة ، فتَكسِبُ بذلك ملكةً من التعقُّـلِ تكونُ زيادةَ عقـلٍ . ويحصـلُ به مزيدُ فطنـةٍ وَكَيْسٍ في الأمـورِ ، لما تَعَـوَّدوه من ذلك الانتقالِ . ولذلك قال كسرى في كتَّـابه ، لما رآهم بتلك الفطنةِ والكَيْسِ ، فقال : « ديوانه ؛ أي شياطينُ أو جنون » . قالوا : وذلك أصلُ اشتِقاقِ الديوانِ لأهـلِ الكتابةِ . ويَلْحَقُ بذلك الحُسَّـابُ فَإنَّ في صناعَةِ الحِسـاب نوع تصرُّفٍ في العَـدَدِ

بالضمِّ والتفريق ، يحُتاج فيه إلى استدلالٍ كثيرٍ ؛ فيبقى متعوِّداً للإستدلالِ والنظرِ ، وهو معنى العقلِ . والله أخْرَجَكُمْ من بطونِ أمَّهاتِكُمْ لا تعلمونَ شيئاً ، وجَعَلَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ ، قليلاً ما تَشْكرون .

(المقدمة صفحة 767 -768)

- 5 -

علوم القرآن من التفسير والقراءات

[. . . .]

ثم صارت علومُ اللسانِ صناعة من الكلامِ في موضوعاتِ اللغةِ وأحكامِ الإعرابِ والبلاغةِ في التراكيبِ ؛ فوضعت الدواوينُ في ذلك ، بعدَ أن كانت ملكاتٍ للعربِ لا يُرجعُ فيها إلى نقلٍ ولا كتابٍ ؛ فتنوسي ذلك وصارت تُتَلقّى من كتبِ أهلِ اللسانِ . فاحتيجَ الى ذلك في تفسيرِ القرآنِ ، لأنه بلسانِ العربِ وعلى منهاجِ بلاغتهم . وصارَ التفسيرُ على صِنْفَينِ : تفسيرٍ نقليٍّ مُستندٍ الى الآثارِ المنقولَةِ عن السلَفِ ، وهي معرفةُ الناسخِ والمنسوخِ وأسبابِ النزولِ ومقاصدِ الآيِ . وكلُّ ذلك لا يعرفُ الا بالنقلِ عن الصحابةِ والتابعينَ . وقد جمعَ المتقدمونَ في ذلك وأوعَوا ، إلا أن كتبَهُم ومنقولاتِهِم تشتملُ على الغثِّ والسمّين والمقبولِ والمردودِ . والسببُ في ذلك أن العربَ لم يكونوا أهلَ كتابٍ ولا علمٍ ، وإنما غلبت عليهم البداوةُ والأُميَّة . فإذا تشوَّقوا الى معرفةِ شيءٍ مما تتشوَّقُ اليه النفوسُ الانسانية في أسبابِ المكوِّناتِ ، وبدءِ الخليقةِ ، وأسرارِ الوجودِ ؛ فإنما يسألونَ عنه أهلَ الكتابِ قبلهم ويستفيدونَه منهم ، وهم أهل التوراةِ من اليهودِ ومن تبعَ دينهم من النصارى . وأهلُ التوراة الذين بينَ العربِ يومئذٍ باديةٌ مثلهم ، ولا يعرفونَ من ذلك إلا ما تعرفُهُ العامَّةُ من أهلِ الكتابِ ، ومعظَمُهم من حِميَرَ الذينَ أخذوا بدين اليهوديةِ . فلما أسلموا بقوا على ما كانَ عندهم ، مما لا تعلُّقَ له بالأحكامِ الشرعيَّةِ التي يحتاطونَ لها ، مثلَ أخبارِ بدءِ الخليقةِ وما يرجعُ إلى الحِدثانِ والملاحمِ وأمثالِ ذلك . وهؤلاء مثلُ كعبِ الأحبارِ ووَهْبِ بن مُنَبِّهٍ وعبدِ الله بن سلامٍ وأمثالِهم . فامتلأت التفاسيرُ من النقولات عنهم ، في أمثال هذه الأغراضِ ، أخباراً موقوفةً عليهم ، وليست مما يُرجَعُ إلى الأحكام فيُتَحَرّى في الصحَّةِ التي يجبُ بها العملُ . وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتبَ التفسيرِ بهذه المنْقولاتِ . واصلها كما قلناه عن أهلِ التوراةِ الذينَ يسكنونَ الباديَةَ ، ولا تحقيقَ عندهم بمعرفةِ ما ينقلونه

من ذلك ؛ إلا أنهم بَعُدَ صيتُهُمْ وعظُمَتْ أقدارُهم ، لِمَا كانوا عليه من المقاماتِ في الـدينِ والملـةِ ، فتُلُقِّـيَتْ بالقبـولِ من يومئـذٍ . فلما رجـعَ النـاسُ الى التحقيقِ والتمحيصِ ، وجاءَ أبو محمد بنُ عطيَّـةَ من المتأخِّـرينَ بالمغربِ ، فلخَّـصَ تلكَ التفاسيرَ كلَّـها ، وتحرَّى ما هو أقربُ إلى الصحَّـةِ منهـا ، ووضـعَ ذلك في كتـابٍ متداوَل بين أهلِ المغربِ والأنـدلسِ حسـنِ المنحـى . وتبعـه القُرطبـيُّ في تلك الطريقةِ على منهاجٍ واحدٍ في كتابٍ آخر مشهورٍ بالمشرقِ .

(المقدمة صفحة786 -787)

- 6 -

في أنّ العجمة إذا سبقت الى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسرُّ في ذلك أنّ مباحثَ العُلوم كلّها إنما هي في المعاني الذهنيَّةِ والخياليَّةِ ، من بين العُلُومِ الشرعِيَّةِ ، التي هي أكثر مباحِثِها في الألفاظِ وموادُّها من الأحكام المتلقَّاةِ من الكِتابِ والسنَّة ولغاتها المؤدّيةِ لها ، وهي كلها في الخيال ؛ وبين العُلُومِ العَقليَّةِ ، وهي في الذهن . واللغـاتُ إنَّما هي ترجمـانٌ عما في الضمائِرِ من تلْك المَعاني ، يؤدِّيها بعضٌ إلى بعضٍ بالمشافَهَةِ في المناظَرَة والتعليم ، وممارَسَةِ البحث بالعُلُومِ لتحصيلِ مَلَكتِها بطول المِرانِ على ذلك . والألفاظُ واللُّغاتُ وسائطُ وحُجُبٌ بين الضمائِرِ ، وروابطُ وختامٌ عن المعاني . ولا بدَّ في اقتناص تلْك المَعاني من ألفاظِها لمعرفَةِ دَلالاتِها اللُّغَويَّةِ عَلَيها ، وجودةِ المَلَكة لناظِرٍ فيها ؛ وإلا فيعتاصُ علَيه اقتناصُها زيادةً على ما يكون في مباحِثِها الذهنيَّةِ من الاعتياص . وإذا كانت ملكته في تِلْك الدلالاتِ راسخةً ، بحيث يتبادَرُ المعاني إلى ذهنِهِ من تلْك الألفاظِ عند استعمالِها ، شأن البديهي والجِبِليِّ ، زال ذاك الحجابُ بالجملة بين المعاني والفهم ، أو خفَّ ؛ ولم يبقَ إلا معانَاة ما في المعاني من المباحث فقط . هذا كله إذا كان التعليم تلْقيناً وبالخطاب والعِبارَة . وأمَّا إن احتاجَ المُتَعَلِّمُ إلى الدراسَةِ والتقييدِ بالكتابِ ومشافهةِ الرسومِ الخطيَّةِ من الدواوين بمسائل العُلُومِ ، كان هنالك حجابٌ آخر بين الخطِّ ورسومِهِ في الكتاب ؛ وبين الألْفاظِ المقولَةِ في الخيالِ . لأنَّ رسومَ الكتابَةِ لها دَلالَةٌ خاصَّةٌ على الألفاظ المقولة . وما لم تعرف تلْك الدلالة تعذَّرَتْ معرِفَةُ العِبَارَة ، وإن عُرِفَتْ بملَكة قاصرَةٍ كانت معرفَتُها أيضاً قاصرةً ، ويزدادُ على الناظِرِ والمتَعَلِّم بذلك حجابٌ آخرُ بينه وبين مطلوبه ، من تحصيل ملكات العُلُومِ أعْوَصُ من الحجاب الأوّلِ . وإذا كَانَتْ مَلَكَتُه في الدَّلاَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ والخطيَّةِ مُسْتحكمةً ارتفعَتِ الحُجُبُ بينه وبين المعاني . وصار إنَّما يُعاني فهم مباحِثِها فقط . هذا شأنُ المعاني مع الألفاظِ والخطِّ بالنسبَةِ إلى كل لُغَةٍ . والمتعَلِّمون لذلك في الصغَرِ أشَدُّ استِحْكاماً لَمَلَكاتهم . ثم إنَّ المِلَّة الإسْلامِيَّة لَما اتسع مُلْكها

واندرَجَتِ الأُمَمُ في طيِّها ودَرَسَتْ علومُ الأوَّلين بنبوّتها وكتابها ، وكانت أُميَّةَ النزعَةِ والشعارِ ؛ فأخذَ الملكُ والعِزَّةُ وسُخْرِيَّة الأُمَمِ لهمْ بالحضارَةِ والتهذيب ، وصيَّروا علومَهُم الشرعِيَّة صِنَاعَةً ، بعد أن كانت نقلاً ؛ فحدثت فيهم الملكات ، وكثرت الدواوين والتآليف ؛ وتشوَّفوا إلى علوم الأُمَم فنقلوها بالترجَمَةِ إلى علومِهِمْ وأفْرَغوها في قالَبِ أنظارِهِمْ ، وجرَّدوها من تلْك اللغات الأعْجَمِيَّة إلى لسانهم وأربَوْا فيها على مدارِكِهِمْ ، وبقيت تلك الدفاترُ التي بلغتهم الأعجمِيَّةِ نسياً منسياً وطللاً مهجوراً وهباءً منثوراً . وأصبحت العُلُومُ كلُّها بلغةِ العَرَبِ ، ودواوينُها المسطَّرَةُ بخطِّهم ، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفَةِ الدلالاتِ اللفظيَّةِ والخطيَّة في لسانهم دون ما سواه من الألسن ، لدروسها وذهاب العناية بها . وقد تقدم لنا أنَّ اللغَةَ مَلَكةٌ في اللِّسَانِ ، وكذا الخطّ صناعة ملكتها في اليد ؛ فإذا تَقَدَّمَتْ في اللِّسَانِ ملكةُ العُجْمَةِ ، صار مقصّراً في اللغةِ العربيَّةِ ، لما قدَّمناه من أن المَلَكة إذا تقدَّمَتْ في صناعةٍ بمحلٍّ ، فقلَّ أن يجيدَ صاحبُها مَلَكةً في صناعةٍ أُخرى ، وهو ظاهر . وإذا كان مقصَّراً في اللُّغةِ العربيَّة ودَلالاَتِها اللفظيَّة والخطيَّة اعتاصَ علَيه فهمُ المعاني منها كما مرَّ . إلاَّ أن تكونَ مَلَكةُ العُجْمَةِ السابِقَةِ لم تَسْتحكم حين انتقل منها إلى العربيةِ ، كأصاغر أبناء العَجَمِ ، الذين يربون مع العَرَبِ قبل أن تستحكِمَ عُجْمَتُهُمْ ، فتكون اللغةُ العربيةُ كأنَّها السابقةُ لهم ، ولا يكونُ عندهم تقصيرٌ في فهم المعاني من العربية . وكذا أيضاً شأن من سبقَ له تعلُّمُ الخطِّ الأعْجَمِيِّ قبل العَرَبيِّ . ولهذا نجدُ الكثيرَ من علماءِ الأعاجِم في دروسِهِمْ ومجالِس تعليمِهِمْ يعدِلون عن نقلِ التفاسيرِ من الكتبِ إلى قراءتِها ظاهراً يخفِّفون بذلك عن أنفُسِهم مؤونَةَ بعض الحُجُبِ ليقرب عليهم تناوُلُ المعاني . وصاحبُ المَلَكة في العبارَةِ والخطِّ مستغنٍ عن ذلك ؛ بتمام مَلَكتِهِ ، وإنَّهُ صارَ له فهمُ الأقوالِ من الخطِّ ، والمعاني من الأقوال ، كالجِبِلَّة الراسِخَةِ ، وارتفعتِ الحُجُبُ بينَه وبين المَعَاني . ورُبَّما يكونُ الدُّؤوب على التعليمِ والمِرانِ على اللُّغَةِ ، وممارَسَةِ الخطِّ يُفْضِيانِ بصاحبهما إلى تمكُّنِ المَلَكة ، كما نجده في الكثيرِ من عُلماء الأعاجم ؛ إلاَّ أنَّه في النادر . وإذا قُرِنَ بنظيرِه من علماءِ العَرَبِ وأهلِ طبقَتِهِ منهم ، كان باعُ العَرَبِيِّ أطوَلَ وملكتُهُ أقوى ،

لما عند المستعجِم من الفُتورِ بالعُجْمَةِ السابقةِ التي يؤثر القصورُ بالضرورَةِ ولا يعترض ذلك بما تقدَّم بأنَّ علماءَ الإسلام أكثرُهُم العَجَمُ ، لأنَّ المرادَ بالعَجَم هنالك عجمُ النَّسَبِ لتداوُلِ الحضارَةِ فيهم التي قرَّرنا أنَّها سببٌ لانتحالِ الصنائِعِ والمَلَكات ومن جملَتِها العُلُوم . وأما عجمة اللغة فَلَيْسَتْ من ذلك ، وهي المرادَةُ هنا . ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونَانِيِّين في علومِهِم من رُسوخِ القَدَمِ فإنَّهم إنَّما تعلموها من لغتهم السابقَةِ لهم وخَطِّهِم المتعارَفِ بينهم . والأعجمي المُتَعَلِّمُ للعِلم في المِلَّة الإسلاميَّةِ يأخُذُ العلم بغير لسانِهِ الذي سَبَقَ إليه ، ومن غير خطِّهِ الذي يعرف ملكته . فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه . وهذا عامٌّ في جميع أصناف أهل اللسان الأعْجَمِيِّ من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج ، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي . وفي ذلك آيات للمتوسمين .

(المقدمة صفحة 1051 -1055)

- 7 -

في علوم اللسان العربي

أركانُهُ أربعَةٌ : وهي اللغةُ والنحوُ والبيانُ والأدبُ . ومعرفتُها ضروريَّـةٌ على أهلِ الشريعَةِ ، إذ مأخذُ الأحكامِ الشرعِيَّـةِ كلِّـها من الكتابِ والسُّنَّـةِ ، وهي بلغةِ العَرَبِ ، ونقلتُها من الصحابةِ والتابعينَ عربٌ ، وشرحُ مشكِلاتها من لغتِهِمْ ، فلا بدَّ من معرفةِ العُلُومِ المتعلِّـقَةِ بهذا اللسانِ لمن أرادَ علـمَ الشريعـةِ . وتتفـاوتُ في التأكيدِ بتفاوُتِ مراتبها في التوفيةِ بمقصودِ الكلامِ ، حسبما يتبيَّـنُ في الكلام عَلَيها فناً فناً . والذي يتحصَّـلُ أنَّ الأهمَّ المقدَّمَ منها هو النحوُ ، إذا به يتبيَّـنُ أُصولُ المقاصِدِ بالدلالةِ فيعرَفُ الفاعلُ من المفعولِ والمبتدأُ من الخبرِ ، ولولاه لَجُهِلَ أصلُ الإفادَةِ . وكانَ من حقِّ علْمِ اللغةِ التقدُّمُ ، لولا أنَّ أكثر الأوضاعِ باقيةٌ في موضوعاتها ، لم تتغير بخلافِ الإعرابِ الدَّالِ على الإسنادِ والمُسنَدِ والمسنَدِ إليه ؛ فإنه تغيَّـرَ بالجملةِ ولم يبقَ له أثرٌ . فلذلك كان علْمُ النحوِ أهمَّ من اللغـةِ ، إذ في جهلِـهِ الإخـلالُ بالتفاهُمِ جملةً ، وليست كذلك اللغةُ . واللهُ سبحانه وتعالى اعلمُ وبه التوفيقُ .

(المقدمة صفحة1055)

علم النحو

إعلم أن اللغةَ في المتعارَفِ هي عبارةُ المتكلِّـم عن مقصودِهِ . وتلْكَ العبارَةُ فعلٌ لسانيٌّ ناشيءٌ عن القصدِ بإفادَةِ الكلام ، فلا بدَّ أن تصيرَ ملكةً متقرِّرَةً في العضوِ الفاعِلِ لها ، وهو اللسانُ . وهو في كل أمَّـةٍ بحسبِ اصطلاحاتهم . وكانت المَلَكةُ الحاصلةُ للعربِ من ذلك أحسَنَ المَلَكاتِ وأوضَحها إبانةً عن المقاصِدِ ، لدلالَةِ غيرِ الكلماتِ فيها على كثيرٍ من المعاني . مثل الحركاتِ التي تعيِّـنُ الفاعِلَ من المفعول من المجرورِ أعني المضافَ ، ومثلِ الحـروفِ التـي تفضي بالأفعـالِ أي الحـركاتِ إلى الذواتِ من غيرِ تكلُّـفِ ألفاظٍ أخرى . وليسَ يوجدُ ذلك إلا في لغةِ العَربِ . وأمَّـا غيرُها من اللغاتِ فكلُّ معنى أو حالٍ لا بدَّ له من ألفاظٍ تخصُّـهُ بالدلالَةِ ، ولذلك نجِدُ كلامَ العَجَمَ في مخاطباتِهم أطولَ مما نقدِّرُهُ بكلامِ العَربِ . وهذا هو معنى قوله ﷺ : « أوتيتُ جوامِعَ الكلِمِ واختُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً » . فصار للحروفِ في لغتهم والحركاتِ والهيآتِ ، أي الأوضاعِ ، اعتبارٌ في الدلالـةِ على المقصـودِ غـيرَ متكلِّـفينَ فيهِ لصناعَةٍ يستفيدونَ ذلك منها . إنما هي ملكةٌ في ألسنتهم يأخذُها الآخِرُ عن الأوَّلِ كما تأخُذُ صبيانُنا لهذا العَهدِ لغاتِنا .

فلما جاء الاسلامُ وفارقوا الحجازَ لطلبِ الملكِ ، الذي كانَ في أيدِي الأُممِ والدولِ ، وخالطوا العجمَ ، تغيَّـرَتْ تلك المَلَكةُ بما ألقى إليها السمعُ من المخالفاتِ التي للمتَعرِّبينَ من العَجَم . والسمعُ أبو الملكاتِ اللسانيَّـةِ ، ففسُدَت بما ألقي إليها مما يغايرُها ، لجنوحِها إليه باعتيادِ السمع . وخشيَ أهلُ العلومِ منهم أن تفسُدَ تلكَ الملكةُ رأساً ويطولَ العهدُ بها ، فينغَلِقَ القرآنُ والحديثُ على المفهومِ ؛ فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانينَ لتلكَ المَلَكةِ مطَّرِدَةً ، شبهَ الكُلِّـيَّاتِ والقواعِـدِ ، يقيسـونَ عليها سائرَ أنواعِ الكلامِ ويُلحِقونَ الأشباهَ بالأشبـاهِ . مثـل أنَّ الفاعِـلَ مرفـوعٌ والمفعولَ منصوبٌ ، والمبتـدأ مرفـوعٌ . ثـم رأوا تغيُّـرَ الدَّلاَلَـةِ بتغيُّـرِ حَرَكاتِ هذه الكلِماتِ ، فاصطلحوا على تسميتِهِ إعراباً ، وتسميةِ الموجبِ لذلك التغيُّـرِ عامِـلاً وأمثالِ ذلك . وصارت كلُّـها اصطلاحاتٍ خاصةً بهم ، فقيَّـدوها بالكتابِ وجعلوها

صناعةً لهم مخصوصَةً ، واصطلحوا على تسميتها بعلمِ النحوِ . وأوّلُ من كتبَ فيها أبو الأسودِ الدؤ ليُّ من بني كِنَانَةَ ، ويقالُ بإشارةِ عليٍّ رضي اللهُ عنهُ ، لأنهُ رأى تغيُّرَ الملكةِ ، فأشارَ عليهِ بحفظها ، ففزعَ إلى ضبطِها بالقوانينِ الحاصرةِ المستقرأةِ ؛ ثم كتبَ فيها الناسُ من بعده إلى أن انتهت إلى الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ أيامَ الرشيدِ ، أحوجَ ما كان الناسُ إليها ، لذهابِ تلك الملكةِ من العربِ . فهذَّبَ الصِناعَةَ وكمل أبوابها . وأخذَها عنه سيبويهِ ، فكمل تفاريعَها واستكثَرَ من أدلتها وشواهِدِها ، ووضعَ فيها كتابَهُ المشهورَ ، الذي صارَ إماماً لكل ما كتبَ فيها من بعده . ثم وضعَ أبو علي الفارسيُّ وأبو القاسمِ الزَّجاجُ كتباً مختصرةً للمتعلّمينَ ، يحذونَ فيها حذوَ الإمام في كتابه .

ثم طَالَ الكلامُ في هذه الصِناعةِ وحدَثَ الخلافُ بين أهلها ، في الكُوفةِ والبصرة : المصرينِ القديمينِ للعربِ . وكثرتِ الأدِلّةُ والحِجاجُ بينهم ، وتباينت الطرقُ في التعليمِ ، وكثُرَ الاختلافُ في إعرابِ كثيرٍ من آي القرآنِ ، باختلافهم في تلك القواعدِ ، وطَالَ ذلكَ على المتعلمينَ . وجاء المتأخّرونَ بمذاهبهم في الاختصارِ ، فاختصروا كثيراً من ذلك الطولِ مع استيعابِهم لجميعِ ما نُقلَ ، كما فعلهُ ابنُ مالكٍ في كتابِ التسهيلِ وأمثالِهِ ، أو اقتصارِهم على المبادِىء للمتعلّمينَ ، كما فعلَهُ الزمخشريُّ في المفصّلِ وابنُ الحاجبِ في المقدَّمَةِ له . وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابنِ مالكٍ في الأرجوزتَيْنِ الكُبرى والصُغْرى ، وابنِ مُعْطي في الأرجوزةِ الألفيَّةِ . وبالجملةِ فالتآليفُ في هذا الفنِّ أكثرُ من أن تحصى أو يحاطَ بها ، وطرقُ التعليمِ فيها مختلِفَةٌ ؛ فطريقَةُ المتقدِّمينَ مغايرةٌ لطريقةِ المتأخّرينَ . والكوفيُّونَ والبصريُّونَ والبغداديُّونَ والأندلُسيُّونَ مختَلِفَةٌ طُرُقُهم كذلك .

[. . . . .]

(المقدمة صفحة 1056 -1058)

ـ 9 ـ علم اللغة

هذا العلمُ هو بيانُ الموضوعاتِ اللغويَّـةِ . وذلك أنهُ لما فسدَت ملَكةُ اللسانِ العربيِّ ، في الحركاتِ المسمَّـاةِ عند أهلِ النحوِ بالإعرابِ ، واستُنْبِطَتِ القوانـينُ لحفظِها كما قلناهُ . ثم استمرَّ ذلك الفسادُ بملابسةِ العَجَمِ ومخالطَتِهم ، حتى تأدَّى الفسادُ إلى موضوعاتِ الألفاظِ ، فاستُعمِلَ كثيرٌ من كلامِ العربِ في غيرِ موضوعِـهِ عندهم ، ميلاً مع هُجْنَةِ المتعرِّبين في اصطلاحاتِهم المخالِفَـةِ لصريحِ العـربيَّـةِ ، فاحتيجَ إلى حِفظِ الموضوعاتِ اللغويَّـةِ بالكتابِ والتدوينِ ؛ خشيةَ الدروسِ ومـا ينشأُ عنهُ من الجهلِ بالقرآنِ والحديثِ ، فشمَّـرَ كثيرٌ من أئمةِ اللسانِ لذلك وأملوا فيهِ الدواوينَ . وكانَ سابقَ الحَلْبَةِ في ذلك الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ . ألَّـفَ فيها كتابَ العينِ ؛ فَحَصَرَ فيهِ مُرَكَّـباتِ حروفِ المُعْجَمِ كلها ، من الثُنَائـيِّ والثُلاثِـيِّ والرُباعِيِّ والخُماَسّي ، وهو غايةُ ما ينتهي إليهِ التركيبُ في اللسانِ العربيِّ . وتأتَّى له حصرُ ذلك بوجوهٍ عديدةٍ حاصِرَةٍ ؛ وذلك أنَّ جملةَ الكلِماَتِ الثُنائيَّـةِ تخرُجُ من جميعِ الأعدادِ على التوالي من واحدٍ إلى سبعةٍ وعشرينَ ، وهو دونَ نهايةِ حروفِ المعجمِ بواحدٍ . لأنَّ الحرفَ الواحد منهـا يؤخـذُ مع كلِّ واحـدٍ من السبعَـةِ والعِشرينَ ؛ فتكونُ سبعةً وعشرينَ كلمةً ثنائيةً . ثم يؤخذُ الثاني مع الستَّـةِ والعِشرينَ كذلك . ثم الثالثُ والرابعُ . ثم يؤخَذُ السابعُ والعِشرونَ مع الثامنِ والعشرين ، فيكونُ واحداً ، فتكون كلها أعداداً على توالي العددِ من واحدٍ الى سبعةٍ وعشرينَ ، فتجمعُ كما هي بالعملِ المعروفِ عندَ أهلِ الحسابِ وهو أن تجمعَ الأوَّلَ مع الأخيرِ وتضربَ المجموع في نصف العدّة . ثم تضاعفَ لأجل قلبِ الثنائيِّ ، لأنَّ التقديمَ والتأخيرَ بينَ الحروفِ معتبرٌ في التركيبِ ، فيكونُ الخارجُ جملةَ الثنائيَّـاتِ .

وتخرُجُ الثلاثيَّـاتُ من ضربِ عَدَدِ الثنائيَّـاتِ فيما يجتمع من واحـدٍ إلى ستَّـةٍ وعشرينَ على توالي العَدَدِ ؛ لأنَّ كلَّ ثنائيَّـةٍ تزيدُ عليهـا حرفـاً ، فتـكونُ ثلاثيةً . فتكونُ الثنائيَّـةُ بمنزلةِ الحرفِ الواحِدِ مع كلِّ واحدٍ من الحروفِ الباقِيَةِ ، وهي ستَّـةٌ وعشرونَ حرفاً ، بعد الثنـائيَّـةِ ؛ فتُجمـعُ من واحدٍ إلى ستَّةٍ وعشرَينَ على توالي العددِ ، ويضرَبُ فيه جملةُ الثنائياتِ . ثم تضربُ الخارجَ في ستَّـةٍ ، جملةِ مقلوباتِ

الكلمةِ الثلاثيَّـةِ ، فيخرجُ مجموعُ تركيبِها من حروفِ المُعجم . وكذلك في الرباعيِّ والخماسّي . فانحصرت له التراكيبُ بهذا الوجهِ ، ورتَّـبَ أبوابَهُ على حروفِ المعجمِ بالترتيبِ المتعارفِ . واعتمَدَ فيهِ ترتيبَ المخارجِ ، فبدأ بحروفِ الحَلْـقِ ، ثم ما بعدَه من حروفِ الحنَكِ ثم الأضراسِ ، ثم الشَفَةِ ؛ وجعلَ حُرُوفَ العِلَّـةِ آخِراً ، وهي الحروفُ الهوائيَّـة . وبدأ من حُروفِ الحَلْقِ بالعـينِ ، لأنَّـهُ الأقصى منهـا . فلذلك سمِّـيَ كتابُهُ بالعينِ ، لأنَّ المتقدِّمينَ كانوا يذهبونَ في تسميَةِ دواوينهـم إلى مثلِ هذا ، وهو تسميتُه بأوَّلِ ما يقعُ فيه مِن الكلماتِ والألفاظِ . ثم بيَّـنَ المُهَمَلَ منها من المستعملِ ، وكان المهملُ في الرُباعيِّ والخماسيِّ أكثرَ لقلَّـةِ استعمالِ العربِ له لِثقلِه ، ولَحِقَ بِهِ الثنائيُّ لقلَّـةِ دورانِه ، وكانَ الاستعمالُ في الثُلاثيِّ أغلبَ ، فكانت أوضاعُهُ أكثرَ لدورانِهِ . وضمَّـنَ الخليلُ ذلك كلَّـهُ في كتابِ العينِ واستوعبهُ أحسنَ استيعابٍ وأوفاه .

[. .....]

ثم لما كانت العربُ تضعُ الشيءَ لمعنى على العُمومِ ، ثـم تستعمِلُ في الأُمورِ الخاصَّـةِ ألفاظاً أُخرى خاصَّـةً بها ، فرَّق ذلك عندنا ، بينَ الوضع والاستعمال ، واحتاجَ الناس الى فِقهٍ في اللغةِ عزيزِ المأخَذِ ؛ كما وُضِعَ الأبيَضُ بالوضعِ العامِّ لكلِّ ما فيه بياضٌ ، ثم اختُصَّ ما فيهِ بياضٌ من الخيلِ بالأشهَـبِ ، ومـن الانســانِ بالأزهرِ ، ومن الغَنَمِ بالأملَحِ ، حتى صار استعمالُ الأبيضِ في هذه كلِّـها لحنـاً وخروجاً عن لسانِ العربِ . واختُصَّ بالتأليفِ في هذا المنحى الثعالبيُّ ، وأفردَهُ في كتابٍ له سمَّـاه فقه اللغَةِ ، وهو من آكدِ ما يأخُذُ به اللغـويُّ نَفسَـهُ ، أن يحـرِّفَ استعمالَ العربِ عن مواضِعِهِ . فليسَ معرفةُ الوضعِ الأوَّلِ بكافٍ في التـركيبِ ، حتى يشهدَ له استعمالُ العَرَبِ لذلك . وأكثرُ ما يحتاجُ إلى ذلك الأديبُ في فنّي نظمِهِ ونثرِه ، حذراً من أن يكثُرَ لحنُهُ في الموضوعاتِ اللغويَّـةِ في مفرداتها وتراكيبها ، وهو أشرُّ من اللحنِ في الإعرابِ وأفحشُ . وكذلك ألَّـفَ بعضُ المتأخِّـرينَ في الألفاظِ المشتركةِ وتكفَّـلَ بحصرِها ، وإن لم يبلُـغْ إلى النهـايَةِ في ذلك ، فهـو مستوعِـبٌ للأكثرِ . وأمَّـا المختَصراتُ الموجودةُ في هذا الفنِّ ، المخصوصةُ بالمتداوَلِ من اللُغَةِ

الكثيرِ الاستعمالِ ، تسهيلاً لحفظها على الطالبِ ، فكَثيرةٌ مثل الألفاظِ لابنِ السكّيتِ والفصيحِ لثعلَبَ وغيرهما . وبعضُها أقلُّ لغةً من بعضٍ لاختلافِ نظرِهِم في الأهمِّ على الطالِبِ للحفظِ . والله الخلاقُ العليمُ ، لا ربَّ سواه .

فصل : واعلَمْ أنَّ النقلَ الذي تثبتُ به اللغةُ ، إنما هو النقلُ عن العَرَبِ أنَّهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني ، لا تقُلْ إنَّهم وضعوها لأنَّه متعذِّر وبعيد ، ولم يعرف لأحد منهم . وكذلك لا تثبتُ اللغاتُ بقياسٍ ما لم نعلمَ استعماله ، على ما عُرِفَ استعماله في ماءِ العِنَبِ ، باعتبار الإسْكار الجامع : لأن شهادةَ الاعتبارِ في بابِ القياسِ إنما يدركها الشرعُ الدالُّ على صِحَّةِ القياسِ من أصله . وليس لنا مثله في اللغَةِ إلاّ بالعَقل ، وهو محكم ، وعلى هذا جُمهورُ الأئِمَّةِ . وإن مالَ إلى القياسِ فيها القاضي وابنُ سُرَيْج وغيرهم . لكن القول بنفيه أرجح . ولا تتوهَمَنَّ أن إثباتَ اللغةِ في بابِ الحدود اللفظيَّةِ ، لأن الحدَّ راجعٌ إلى المعاني ، ببيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفيِّ هو مدلولُ الواضح المشهور ، واللغة إثبات أن اللفظَ كذا ، لمعنى كذا ، والفرقُ في غايةِ الظهور .

(المقدمة صفحة1059 -1064)

- 10 -

علم البيان

هذا العلمُ حادثٌ في المِلَّةِ بعدَ علمِ العَربيَّةِ واللُّغَةِ ، وهـو من العلـومِ اللِّسَانيَّـةِ ، لأنه متعلِّـقٌ بالألفاظِ وما تفيدُهُ . ويُقصَدُ بها الدِّلالَةُ عليه من المعَاني . وذلك أنَّ الأُمورَ التي يقصِدُ المتكلِّـمُ بها إفادَةَ السامِعِ من كلامه هي : إمَّـا تصوُّرُ مفرداتٍ تُسنَدُ ويُسنَـدُ إليهـا ويفضي بعضُهـا إلى بعضٍ ، والدلالـةُ على هذه هي المفرداتُ من الأسماءِ والأفعَالِ والحروفِ ؛ وإمَّـا تمييزُ المسنـداتِ من المسنـدِ إليهـا والأزمِنَةِ ، ويُدَلُّ عليها بتغيُّـرِ الحركاتِ وهو الإعرابُ وأبنيَةُ الكَلماتِ . وهذه كلُّـها هي صناعَةُ النحوِ . ويبقى من الأُمورِ المكتنِفَةِ بالواقِعَـاتِ ، المحتاجـةِ للدلالـةِ ، أحوالُ المتخاطبينَ أو الفاعلينَ ، وما يقتضيه حالُ الفعلِ ؛ وهو محتاجٌ إلى الدِّلالةِ عليه ، لأنه من تمامِ الإفادَةِ ، وإذا حصلت للمتكلِّـمِ فقـد بلـغَ غايَةَ الإفـادةِ في كلامه . وإذا لم يشتمل على شيءٍ منهـا ، فليسَ من جنسِ كلامِ العَـربِ ؛ فإنَّ كلامَهُم واسِعٌ ، ولكلِّ مقامٍ عندهم مقالٌ يختصُّ به بعد كمالِ الإعْرابِ والإبانَة .

(المقدمة صفحة 1064)

- 11 -

في أنّ اللغة ملكة صناعية

إعلم أنَّ اللغاتِ كلَّها ملكاتٌ شبيهةٌ بالصّناعَةِ ، إذ هي مَلَكاتٌ في اللسانِ ، للعبارَةِ عن المَعاني وجودَتِها وقصورِها بحسبِ تمامِ المَلَكةِ أو نُقصانِها . وليس ذلك بالنَّظَرِ الى المفرداتِ ، وإنما هو بالنظرِ إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكةُ التامَّةُ في تركيبِ الألفاظِ المفردةِ ، للتعبيرِ بها عن المَعاني المقصودَةِ ، ومراعاةِ التأليفِ الذي يطبِّقُ الكلامَ على مقتضى الحالِ ، بلغَ المتكلِّمُ حينئذٍ الغايَةَ من إفادَةِ مقصودِهِ للسامع ، وهذا هو معنى البلاغَةِ . والملكاتُ لا تحصُلُ إلا بتكرارِ الأفعالِ لأنَّ الفعلَ يقعُ أوَّلاً وتعودُ منه للذاتِ صِفَةٌ ، ثم تتكرَّرُ فتكونُ حالاً . ومعنى الحالِ أنها صِفَةٌ غيرُ راسِخَةٍ ، ثم يزيد التكرارُ فتكونُ ملكةً أي صفةً راسخةً .

فالمتكلِّمُ من العَرَبِ حين كانت ملكة اللغةُ العَرَبيَّةُ موجودةً فيهم ، يسمعُ كلامَ أهلِ جيلِهِ ، وأساليبَهُم في مخاطباتِهِم وكيفِيَّةِ تعبيرهم عن مقاصِدِهم ؛ كما يسمَعُ الصبيُّ استعمالَ المفرداتِ في معانيها ؛ فيلقّنُها أوَّلاً ، ثم يسمعُ التراكيبَ بعدَها فيلقَّنُها كذلك . ثم لا يزالُ سماعُهُمْ لذلك يتجدَّدُ في كلِّ لحظةٍ ومن كل متكلِّمٍ ، واستعمالُهُ يتكرَّرُ إلى أن يصيرَ ذلك مَلَكَةً وصِفَةً راسِخَةً ويكونُ كأحدهم .

هكذا تصيَّرت الألسُنُ واللغاتُ من جيلٍ إلى جيلٍ وتَعَلَّمها العَجَمُ والأطفالُ . وهذا هو معنى ما تقولُه العامَّةُ من أنَّ اللغةَ للعرب بالطبعِ أي بالمَلَكةِ الأولى التي أُخِذَتْ عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم . ثم فَسَدَتْ هذه الملكةُ لِمضَرَ بمخالَطَتِهِم الأعاجِمَ . وسببُ فسادِهَا أنَّ الناشِئَ من الجيلِ ، صارَ يسمعُ في العبارةِ عن المقاصدِ كيفياتٍ أُخرى غيرَ الكيفيَّاتِ التي كانت للعرب ، فيعبِّرُ بها عن مقصودِهِ لكثرةِ المخالطينَ للعَرَبِ من غيرهم ، ويسمعُ كيفيَّاتِ العَرَبِ أيضاً ؛ فاختلطَ عليهِ الأمرُ وأخذَ من هذه وهذه ، فاستحدثَ مَلَكَةً وكانت ناقِصَةً عن الأولى . وهذا معنى فسادِ اللسانِ العَرَبيِّ .

وهذا كانت لغةُ قريشٍ أفصحَ اللغاتِ العربيةِ وأصرَحَها لبُعْدِهِمْ عن بلادِ العَجَمِ من جميعِ جهاتِهِمْ . ثم من اكتَنَفَهُم من ثقيفَ وهُذَيْلَ وخُزَاعَةَ وبني كِنَانَةَ وغَطفَانَ وبني أسدٍ وبني تَميمٍ . وأمَّا من بعُدَ عنهم من ربيعَةَ ولَخمٍ وجُذَامَ وغسَّانَ وإيادٍ وقُضاعَةَ وعَرَبِ اليَمَنِ المجاورينَ لأُمَمِ الفُرْسِ والروم والحَبَشَةِ ، فلم تكن لغتُهم تامَّةَ المَلَكَةِ بمخالَطَةِ الأعاجِمِ . وعلى نسبَةِ بُعدِهم من قريشَ كان الاحتجاجُ بلغاتِهِم في الصِّحَّةِ والفسادِ عند أهلِ الصِنَاعَةِ العَرَبيَّةِ . والله سبحانه وتعالى أعلَمُ وبه التوفيق .

(المقدمة صفحة 1071 -1072)

في أنّ لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير

وذلك أنّا نجدُها في بيانِ المقاصِدِ والوفاء بالدّلالةِ على سُنن اللسانِ المُضرِيِّ ، ولم يُفْقَدْ منها إلا دَلالةُ الحَركاتِ على تعيُّنِ الفاعلِ من المفعول ؛ فاعتاضوا منها بالتقديمِ والتأخيرِ وبقرائنَ تدلُّ على خصوصيَّاتِ المقاصِدِ . إلا أنَّ البيانَ والبلاغَةَ في اللسانِ المضريِّ أكثرُ وأعرقُ ، لأنَّ الألفاظَ بأعيانها دالَّةٌ على المعاني بأعيانها . ويبقى ما تقتضيهِ الأحوالُ ـ ويُسمَّى بساطَ الحالِ ـ محتاجاً إلى ما يدلُّ عليهِ . وكلُّ معنىً لا بدَّ وأن تكتنِفَهُ أحوالٌ تخصُّهُ ، فيجبُ أن تُعتَبَرَ تلكَ الأحوالُ في تأديَةِ المقصودِ لأنَّها صِفاتُهُ ، وتلكَ الأحوالُ في جميعِ الألسُنِ أكثرُ ما يُدلُّ عليها بألفاظٍ تخصُّها بالوضعِ . وأما في اللسانِ العَرَبِيِّ فإنَّما يُدَلُّ عليها بأحوالٍ وكيفِيَّاتٍ ، في تراكيبِ الألفاظِ وتأليفها ، من تقديمٍ أو تأخيرٍ أو حذفٍ أو حركةِ إعرابٍ . وقد يُدَلُّ عليها بالحروفِ غيرِ المستَقِلَّةِ . ولذلك تفاوَتَتْ طَبَقاتُ الكلامِ في اللسانِ العَرَبِيِّ بحسبِ تفاوُتِ الدِّلالةِ على تلكَ الكيفِيَّاتِ كما قدَّمناه ، فكانَ الكلامُ العَرَبِيُّ لذلك أوجَزَ وأقلَّ ألفَاظاً وعبارةً من جميع الألسنِ .

وهذا معنى قوله ﷺ : « أوتيتُ جوامِعَ الكلِمِ واختُصِرَ لِيَ الكلامُ اختِصاراً » . واعتبر ذلكَ بما يُحكى عن عيسى ابن عُمَرَ وقد قال له بعْضُ النُحاةِ : « إني أجدُ في كلامِ العَرَبِ تكراراً في قولهم : زيدٌ قائمٌ ، وإنَّ زيداً قائمٌ ، وإنَّ زيداً لقائمٌ والمعْنى واحدٌ » . فقالَ له : إنَّ مَعَانيها مختلِفَةٌ ، فالأوَّلُ : لإفَادَةِ الخالي الذِّهْنِ من قيامِ زيدٍ ، والثاني : لمن سمعَهُ فتردَّدَ فيه ، والثالِثُ : لمن عُرِفَ بالإصرارِ على إنكارِهِ فاختلفَت الدلالةُ باختلافِ الأحوالِ .

وما زالت هذهِ البلاغَةُ والبيانُ ديدَنَ العَرَبِ ومذهَبَهُم لهذا العَهدِ . ولا تلتفِتَنَّ في ذلك إلى خرفَشَةِ النُّحاةِ أهلِ صناعَةِ الإعرابِ القاصرَةِ مداركُهُم عن التحقيقِ ، حيثُ يزعُمونَ أنَّ البلاغَةَ لهذا العَهدِ ذهبت ، وأنَّ اللسانَ العَرَبيَّ فسدَ ، اعتباراً بما وقعَ أواخرَ الكلمِ من فسادِ الإعرابِ الذي يتدارسونَ قوانينَهُ . وهي مقالةٌ دسَّها

التشيُّعُ في طباعهم ، وألقاها القُصورُ في أفئدتهم ؛ وإلاَّ فنحنُ نجدُ اليومَ الكثيرَ من ألفاظِ العَرَبِ لم تزل في موضوعاتها الأولى ، والتعْبيرُ عن المقاصدِ والتعاوُنُ فيه بتفاوُتِ الإبانَةِ موجودٌ في كلامِهم لهذا العَهدِ ، وأساليبُ اللسانِ وفنونُهُ من النظمِ والنثرِ موجودَةٌ في مخاطباتِهم ، وفيهُم الخطيبُ المِصقَعُ في محافِلِهم ومجامِعِهم ، والشاعِرُ المفلقُ على أساليبِ لغَتهم . والذوقُ الصحيحُ والطبعُ السليمُ شاهدانِ بذلك . ولم يُفْقَدْ من أحوالِ اللسانِ المدوَّنِ إلاَّ حَرَكاتُ الإعرابِ في أواخرِ الكَلِمِ فقط ، الذي لزمَ في لسانِ مُضَرَ طريقةً واحدةً ومهيَعاً معروفاً وهو الإعرابُ ، وهو بعضٌ من أحكامِ اللسانِ . وإنما وقَعت العِنايةُ بلسانِ مُضرَ ، لما فَسَدَ بمخالطتهم الأعاجِمَ ، حين استولوا على ممالِكِ العِراقِ والشامِ ومِصرَ والمغربِ ، وصارت ملكتُهُ على غيرِ الصورةِ التي كانت أوَّلاً ، فانقلبَ لغةً أخرى .

وكانَ القرآنُ مُنْزَلاً به والحديثُ النبويُّ منقولاً بلغتِهِ وهما أصلا الدينِ والملَّةِ ، فخُشِيَ تناسيهما وانغِلاقُ الأفهامِ عنهما بفقدانِ اللسانِ الذي تنزَّلا بِهِ ؛ فاحتيجَ إلى تدوينِ أحكامِهِ ووضعِ مقاييسِهِ واستنباطِ قوانينِهِ . وصارَ علماً ذا فصولٍ وأبوابٍ ومقدِّماتٍ ومسائلَ ، سماهُ أهلُهُ بعلمِ النحوِ ، وصِناعَةِ العَرَبيَّةِ ؛ فأصبحَ فنّاً محفوظاً وعِلماً مكتوباً وسُلَّماً إلى فهمِ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولهِ ﷺ راقياً . ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسانِ العَربيِّ لهذا العَهدِ واستقرينا أحكامهُ ، نعتاضُ عن الحركاتِ الإعرابيَّةِ التي فسدَتْ في دَلاَلَتِها بأمورٍ أخرى وكيفيَّاتٍ موجودةٍ فيهِ ؛ فتكونُ لها قوانينُ تخصُّها . ولَعَلَّها تكونُ في أواخِرِهِ على غيرِ المنهاجِ الأوَّلِ في لغةِ مُضرَ ، فليست اللغاتُ وملكاتُها مجاناً .

ولقد كان اللسانُ المضَرَيُّ مع اللسانِ الحميريِّ بهذه المثابةِ وتغيَّرت عند مُضَرَ كثيرٌ من موضوعاتِ اللسانِ الحميريِّ وتصاريفِ كلماتِهِ . تشهَدُ بذلك الأنقالُ الموجودَةُ لدينا خِلافاً لمن يحمِلُهُ القُصُورُ على أنهما لغَةٌ واحدةٌ ، ويلتمسُ إجراءَ اللغَةِ الحميريَّةِ على مقاييسِ اللغَةِ المضرَيَّةِ وقوانينها ، كما يزعمُ بعضُهُم في اشتقاقِ (القَيْلِ) في اللسانِ الحميريِّ أنهُ من القَولِ وكثيرٌ من أشباهِ هذا ، وليس ذلك بصحيحٍ . ولغةُ حِمْيَرَ لغَةٌ أُخرى مغَايِرةٌ للغَةِ مُضَرَ في الكثيرِ من أوضاعِها وتصاريفِها وحَرَكَاتِ إعرابها ، كما هي لغَةُ العَرَبِ لعَهدنا مع لُغَةِ مُضَرَ ؛ إلاَّ أنَّ العنايَةَ بلسانِ

مُضَرَ ، من أجلِ الشريعَةِ كما قلناه ، حمل ذلك على الاستِنباطِ والإستِقْراءِ ، وليس عندنا لهذا العَهدِ ما يحملُنا على مثلِ ذلك ويدعونا إليه .

ومما وقعَ في لُغَةِ هذا الجيلِ العَربيِّ لهذا العَهدِ ، حيثُ كانوا من الأقطارِ شأنُهُم في النُطقِ بالقافِ ؛ فإنَّهم لا ينطِقونَ بها من مَخرَجِ القافِ عند أهلِ الأمصارِ ، كما هو مذكورٌ في كُتُبِ العَربيَّةِ ، انه من أقصى اللسانِ وما فوقَهُ من الحَنَكِ الأعلى . وما ينطِقونَ بها أيضاً من مَخرَجِ الكافِ ، وإن كانَ أسفَلَ من موضعِ القاف وما يليهِ من الحَنَكِ الأعلى كما هي ، بل يجيئونَ بها متوسِّطةً بين الكافِ والقافِ ، وهو موجودٌ للجيلِ أجمعَ حيثُ كانوا من غربٍ أو شرقٍ ؛ حتى صار ذلك علامةً عليهم من بينِ الأمَمِ والأجْيالِ ومختصَّاً بهم لا يشاركُهُمْ فيها غيرُهم . حتى إنَّ من يريدُ التعرُّب والانتسابَ إلى الجيلِ والدخولَ فيها يحاكيهم في النُّطقِ بها . وعندهم أنه إنما يتميَّزُ العَربيُّ الصريحُ من الدخيلِ في العُروبيَّةِ والحضريِّ بالنُّطقِ بهذه القافِ . ويظهرُ بذلك أنها لُغَةُ مُضَرَ بعينها ، فإنَّ هذا الجيلَ الباقينَ معظمُهُم ورؤساؤُهُم شرقاً وغرباً في ولدِ منصورِ بنِ عِكْرِمَةَ بن خَصَفَةَ بنِ قيسِ بنِ عَيلانَ من سُليمِ بنِ منصورٍ ، ومن بني عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ بنِ مُعاويَةَ بنِ بكرِ بنِ هوازِنَ بنِ منصورٍ . وهم لهذا العَهدِ أكثرُ الأممِ في المعمورِ وأغلبُهُم ، وهم من أعقابِ مُضَرَ ، وسائرُ الجيلِ معهم من بني كهلان ، في النطقِ بهذه القافِ ، أسوَةٌ . وهذه اللغَةُ لم يَبتَدِعْها هذا الجيلُ بل هي متوارَثَةٌ فيهم متعاقِبَةٌ ، .ويظهَرُ من ذلك أنها لُغَةُ مُضَرَ الأوَّلينَ ، ولعلها لُغَةُ النبيِّ ﷺ بعينها . وقد ادَّعى ذلك فُقهاءُ أهلِ البيتِ وزعموا أنَّ من قرأ في أمّ القرآنِ ﴿ إهْدِنا الصرَاطَ المستقيمَ ﴾ بغيرِ القافِ التي لهذا الجيلِ فقد لحنَ وأفسَدَ صلاتَهُ ، ولم أدرِ من أينَ جاءَ هذا ؟ فإنَّ أهلَ الأمصارِ أيضاً لم يستحدِثوها ، وإنما تناقلوها من لدن سلفِهِم وكانَ أكثرُهُم من مضرَ لما نزلوا الأمصارَ من لدن الفتحِ . وأهلُ الجيلِ أيضاً لم يستحدِثوها ، إلا أنهم أبعدُ من مخالطَةِ الأعاجمِ من أهلِ الأمصارِ . فهذا يرجِّحُ ، فيما يوجَدُ من اللغةِ لديهم ، أنه من لغَةِ سلفِهِم . هذا مع اتِّفاقِ أهلِ الجيلِ كلِّهم شرقاً وغرباً في النطقِ بها ، وأنها الخاصيَّةُ التي يتميَّزُ بها العَربيُّ من الهَجينِ والحضَرِيِّ . والظاهرُ أنَّ هذه القافَ

التي ينطِقُ بها أهلُ الجيلِ العَربِيِّ البَدَوِيِّ هو من مخرج القاف عند أوَّلهم من أهل اللغة ، وأن مَخْرَجَ القاف متَّسِع ، فأوَّله من أعلى الحَنَك وآخره مما يلي الكاف . فالنطقُ بها من أعلى الحَنَك هو لغَةُ الأمْصار ؛ والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيلِ البَدَوِيِّ . وبهذا يندفعُ ما قاله أهلُ البيتِ من فسادِ الصلاةِ بتركها في أُمِّ القُرْآن ؛ فإنَّ فقهاءَ الأمصار كلَّهم على خلاف ذلك . وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك ، فوجهه ما قلناه . نعم نقول إنَّ الأرجَحَ والأولى ما ينطقُ به أهلُ الجيل البدوِيِّ لأنَّ تواتُرَها فيهم كما قدَّمْناه ، شاهِدٌ بأنَّها لغةُ الجيل الأوَّل من سلفِهِمْ ، وأنها لغة النبيِّ ﷺ . ويُرَجِّحُ ذلك أيضاً إدغامُهُم لها في الكاف لتقارُبِ المخرَجَيْنِ . ولو كانت كما ينطقُ بها أهلُ الأمْصارِ من أصل الحَنَكِ ، لما كانت قريبةَ المخرج من الكاف ، ولم تُدْغَم . ثم إن أهْلَ العَرَبيَّة قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف ، وهي التي ينطِقُ بها أهلُ الجيل البَدَوِيّ من العربِ لهذا العهد ، وجعلوها متوسِّطَةً بين مَخْرَجَي القافِ والكاف . على أنها حرفٌ مستقِلٌّ ، وهو بعيد . والظاهِرُ أنَّها من آخر مخرج القاف لإتِّساعه كما قلناه . ثم إنَّهم يصرِّحون باستهجانِهِ واستقباحِهِ كأنَّهم لم يصحَّ عندهم إنها لغةُ الجيل الأوَّل . وفيما ذكرناه من إتِّصال نطقهم بها ، لأنَّهم إنما ورثوها من سلفِهِمْ جيلاً بعد جيل ، وأنَّها شعارُهُمُ الخاصُّ بهم ، دليلٌ على أنَّها لغةُ ذلك الجيلِ الأوَّل ، ولغةُ النبيِّ ﷺ كما تقدَّم ذلك كلُّه . وقد يَزْعُمُ زاعمٌ أنَّ هذه القاف التي ينطِقُ بها أهلُ الأمْصارِ ليست من هذا الحرف ، وأنها إنما جاءَتْ من مخالطتهم للعجم ، وإنهم ينطقون بها كذلك ؛ فليست من لغة العرب . ولكن الأقْيس كما قدَّمناه من أنَّهما حرف واحد متسع المخرج . فتفهم ذلك . والله الهادي المبين .

(المقدمة صفحة 1073 -1078)

- 13 -

فِي أَنّ لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

إعلم أنَّ عُرفَ التخاطُبِ في الأمصار وبينَ الحَضرَ ليس بلغَةِ مُضرَ القديمَةِ ، ولا بلغَةِ أهلِ الجيلِ ، بل هي لَغَةٌ أخرى قائمةٌ بنفسها بعيدةٌ عن لُغَةِ مُضرَ وعن لغَةِ هذا الجيلِ العَرَبيِّ الذي لعهدنا ، وهي عن لغَةِ مضرَ أبعدُ .

فأما أنها لغَةٌ قائمةٌ بنفسها فهو ظاهرٌ ، يشهدُ له ما فيها من التغَايُرِ الذي بَعُدَ عن صِنَاعَةِ أهلِ النحوِ لحناً . وهي مع ذلك تختَلِفُ باختلافِ الأمصارِ في اصطلاحاتهم ؛ فلُغَةُ أهلِ المشرقِ مباينَةٌ بعضَ الشيءِ لِلُغَةِ أهلِ المغربِ ، وكذا أهلُ الأندلُسِ معهما ، وكلٌّ منهم متوصِّلٌ بلُغَتِهِ إلى تأديةِ مقصودِهِ والإِبَانَةِ عما في نفسِهِ . وهذا معنى اللسانِ واللغةِ . وفقدانُ الاعرابِ ليسَ بضائرٍ لهم كما قلناهُ في لُغَةِ العربِ لهذا العَهدِ .

وأما أنها أبعدُ عن اللسانِ الأوّلِ من لُغَةِ هذا الجيلِ ، فلأنَّ البُعدَ عن اللِّسانِ إنما هو لمخالطة العجم . فمن خالَطَ العَجَمَ أكثرَ كانت لغَتُهُ عن ذلك اللسانِ الأصليِّ أبعَدَ ، لأنَّ الملكةَ إنما تحصُلُ بالتعليمِ كما قلناه . وهذه مَلَكةٌ ممتزِجَةٌ من الملكةِ الأولى التي كانت للعَرَبِ ومن المَلَكةِ الثانيةِ التي للعَجَمِ . فعلى مقدارِ ما يسمعونَهُ من العُجْمَةِ ويُرَبَّـوْنَ عليهِ يبعدُونَ عن المَلَكةِ الأولى . واعتبر ذلك في أمصارِ إفريقيَّةَ والمغربِ والأندلُسِ والمشرقِ . أمَّـا إفريقيَّـةُ والمغـربُ ، فخالطـت العَـرَبُ فيهـا البرابرةَ من العَجَمِ لِوفورِ عُمرانها بهم ، ولـم يكد يخلـو عنهـم مصرٌ ولا جيلٌ ؛ فغلبت العُجمَةُ فيها على اللسانِ العَربيِّ الـذي كان لهـم ، وصـارت لغَـةً أخـرى ممتزِجةً . والعُجمَةُ فيها أغلبَ لما ذكرناه ، فهـي عن اللسـانِ الأوَّلِ أبعـدُ . وكذا المشرقُ لما غلبَ العربُ على أممِهِ من فارسَ والتركِ فخالطوهـم ، وتداولـت بينَهـم لغاتُهُم في الأكرَةِ والفلاَّحينَ والسُّبِيِّ الذينَ اتخذُوهم خَوَلاً ودايـاتٍ وأظئاراً ومراضِعَ ؛

ففسُدَت لُغَتُهُم بفسادِ المَلَكَةِ حتى انقلبت لُغَةً أُخرى . وكذا أهلُ الأندلُسِ مع عجمِ الجلالِقةِ والإفرنجةِ . وصارَ أهلُ الأمصارِ كلُّهم من هذه الأقاليمِ أهلَ لُغَةٍ أخرى مخصوصَةٍ بهم ، تخالِفُ لغَةَ مُضَرَ ويُخَالِفُ أيضاً بعضُها بعضاً كما نذكره ، وكأنها لغَةٌ أُخرى لاستحكامِ ملكتِها في أجيالِهِم . والله يخْلُقُ ما يشاءُ ويقدِر .

(المقدمة صفحة 1078 -1080)

- 14 -

في تعلّم اللسان المضري

اعلم أنَّ ملكةَ اللسانِ المضريِّ ، لهذا العَهدِ ، قد ذهبت وفسَدَتْ . ولُغَةُ أهلِ الجيلِ كلِّهم مغايِرَةٌ للغةِ مُضَرَ التي نُزِّلَ بها القرآنُ ، وإنما هي لغَةٌ أخرى من امتزاجِ العُجمَةِ بها كما قدَّمناه . إلا أنَّ اللغاتِ لما كانت ملكاتٍ كما مرَّ كان تعلُّمُها ممكِناً ، شأنَ سائرِ الملكاتِ . ووجهُ التعليمِ لمن يبتغي هذه المَلَكَةَ ويرومُ تحصيلَها أن يأخُذَ نفسَهُ بحفظِ كلامِهِم القديمِ الجاري على أساليبِهم من القرآنِ والحديثِ ، وكلام السلفِ ، ومخاطباتِ فحولِ العَربِ في أسجاعِهم وأشعارِهم ، وكلماتِ المولَّدينَ أيضاً في سائر فنونهم ؛ حتى يتنزَّلَ لكثرَةِ حفظِهِ لكلامهم من المنظومِ والمنثورِ منزِلَةَ من نشأ بينهم ولُقِّنَ العبارَةَ عن المقاصِدِ منهم ؛ ثم يتصرَّف بعد ذلك في التعبيرِ عما في ضميره على حسبِ عباراتهم ، وتأليفِ كلماتهم ، وما وعاهُ وحفظَهُ من أساليبِهم وترتيبِ ألفاظهم ؛ فتحصُلُ له هذه الملكةُ بهذا الحفظِ والاستعمالِ ، ويزدادُ بكثرتِهما رُسوخاً وقوَّةً . ويحتاجُ مع ذلك إلى سلامَةِ الطبعِ والتفهُّمِ الحَسَنِ لمنازعِ العربِ وأساليبهم في التراكيبِ ومراعاةِ التطبيقِ بينها وبين مقتضياتِ الأحوالِ . والذوقُ يشهَدُ بذلك ، وهو ينشأُ ما بين هذه المَلَكَةِ والطبعِ السليمِ فيهما كما يُذكرُ بعد . وعلى قَدَرِ المحفوظِ وكثرةِ الاستعمال تكونُ جودَةُ المقولِ المصنوعِ نظماً ونثراً . ومن حصلَ على هذهِ المَلَكاتِ ، فقد حصلَ على لُغَةِ مُضَرَ ، وهو الناقِدُ البصيرُ بالبلاغَةِ فيها ، وهكذا ينبغي أن يكونَ تعلُّمها . والله يهدي من يشاءُ بفضلِهِ وكرمِهِ .

(المقدمة صفحة1080 1081p)

- 15 -

في أنّ ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسببُ في ذلك أنَّ صِنَاعَةَ العربيَّةِ إنما هي معرفَةُ قوانينِ هذه المَلَكَةِ ومقاييسِها خاصَّةً . فهو علمٌ بكيفيَّةٍ ، لا نفسُ كيفيَّةٍ . فليست نفسَ الملكةِ ، وإنما هي بمثابةِ من يعرفُ صِنَاعَةً من الصنائعِ علماً ، ولا يُحْكِمُها عملاً . مثل أن يقولَ بصيرٌ بالخياطةِ ، غيرُ محكِمٍ لمَلَكَتها ، في التعبيرِ عن بعضِ أنواعها : الخياطَةُ هي أن تُدخِلَ الخيطَ ، في خِرْتِ الإبرةِ ، ثم تُغرِزَها في لِفقَي الثوبِ مجتمعَينِ ، وتُخْرِجَها من الجانِبِ الآخرِ بمقدارِ كذا ، ثم تَردَّها إلى حيثُ ابتدأت ، وتُخْرِجَها قدَّامَ منفذِها الأوَّلِ بمطرحٍ ما بين الثَّقْبَيْنِ الأوَّلَيْنِ ؛ ثم يَتمادى على وصفه إلى آخرِ العملِ ، ويُعطي صورةَ الحبكِ والتنبيتِ والتفتيحِ وسائرِ أنواعِ الخياطةِ وأعمالِها . وهو إذا طولِبَ أن يعملَ ذلك بيدِهِ لا يُحْكِمُ منه شيئاً .

وكذا لو سُئِلَ عالِمٌ بالنجارَةِ عن تفصيلِ الخَشَبِ فيقول : هو أن تضعَ المِنشارَ على رأسِ الخَشَبَةِ وتُمْسِكَ بطرَفِهِ ، وآخرُ قُبالَتَكَ ممسكٌ بطرَفِهِ الآخرِ وتتعاقبانِهِ بينكما ، وأطرافُهُ المضرَّسَةُ المحدَّدَةُ تُقطِّعُ ما مرَّت عليه ذاهِبةً وجائيَةً ، إلى أن ينتهيَ إلى أسفلِ الخشَبَةِ . وهو لو طولِبَ بهذا العَمَلِ أو شيءٍ منه لم يُحْكِمْهُ .

وهكذا العِلمُ بقوانينِ الإعرابِ مع هذه المَلَكَةِ في نفسها ، فإنَّ العلمَ بقوانينِ الإعرابِ إنما هو علمٌ بكيفيَّةِ العملِ وليس هو نفسَ العَمَلِ . وكذلك تجِدُ كثيراً من جهابِذَةِ النُّحاةِ ، والمَهَرَةِ في صِنَاعَةِ العربيَّةِ المحيطينَ علماً بتلكَ القوانينِ ، إذا سُئِلَ في كتابةِ سطرينِ إلى أخيهِ أو ذي مودَّتِهِ أو شكوى ظُلاَّمَةٍ أو قصدٍ من قصودِهِ ، أخطأَ فيها الصوابَ وأكثرَ من اللحن ، ولم يُجِدْ تأليفَ الكَلامِ لذلك ، والعبارةَ عن المقصودِ فيه على أساليبِ اللسانِ العربيِّ . وكذا نجدُ كثيراً ممن يحسنُ هذه المَلَكَةَ ويجيدُ الفنَّيْنِ من المنظومِ والمنثورِ ، وهو لا يُحسِنُ إعرابَ الفاعلِ من المفعولِ ، ولا المرفوعِ من المجرورِ ، ولا شيئاً من قوانينِ صِناعةِ العربيَّةِ .

فمن هنا يُعلمُ أنَّ تلكَ المَلَكَةَ هي غيرُ صناعَةِ العربيَّـةِ ، وأنها مستغنِيَةٌ عنها بالجملةِ . وقد نَجِدُ بعضَ المَهَرَةِ في صِنَاعَةِ الإعرابِ بصيراً بحال هذه المَلَكَةِ ، وهو قليلٌ واتفاقيٌّ ، وأكثرُ ما يقعُ للمخالطِينَ لكتابِ سيبويهِ . فإنه لم يقتَصِرْ على قوانينِ الإعرابِ فقط ، بل ملأ كتابَهُ من أمثالِ العربِ وشواهدِ أشعارِهم وعباراتهم ؛ فكانَ فيهِ جزءٌ صالحٌ من تعليمِ هذه المَلَكَةِ ، فتجـدُ العـاكِفَ عليه والمحصِّـلَ له ، قد حصلَ على حظٍّ من كلامِ العربِ واندرجَ في محفوظِهِ في أماكِنِه ومفاصلِ حاجاتِهِ . وتنبَّـهَ به لشأنِ الملكةِ ، فاستوفى تعليمَها ، فكان أبلغَ في الإفادَةِ .

ومن هؤلاءِ المخالِطينَ لكتابِ سيبويه من يَغفَلُ عن التفطُّـنِ لهذا ، فيحصُلُ على علـمِ اللسـانِ صناعَـةً ولا يحـصُـلُ عليهِ مَلـكةً . وأمَّـا المخالِطـونَ لكتـبِ المتأخِّـرينَ العاريَةِ من ذلك ، إلا من القوانين النَحَويَّـةِ ، مجرَّدةً عن أشعارِ العربِ وكلامِهِم ؛ فقلما يَشعُرونَ لذلك بأمرِ هذه المَلَكَةِ أو يتنبَّـهونَ لشأنهـا ، فتجدُهُـم يحسبونَ أنهم قد حصلوا على رُتبةٍ في لسانِ العَرَبِ ، وهم أبعدُ الناسِ عنه . وأهلُ صِنَاعَةِ العربيَّـةِ بالأندلُسِ ومعلِّـموها أقربُ إلى تحصيلِ هذه المَلَكَةِ وتعليمها ممَّـن سواهم ، لقيامِهِم فيها على شواهدِ العربِ وأمثالهم ، والتفقُّـهِ في الكثيرِ من التراكيبِ في مجالِسِ تعليمهم ؛ فيسبُقُ إلى المبتدىء كثيرٌ من الملكةِ أثناءَ التعليمِ ، فتنطَبِعُ النفسُ بها وتستعِدُّ إلى تحصيلها وقبولها .

وأمَّـا من سواهم من أهلِ المغربِ وإفـريقيَّـةَ وغيرِهـم ؛ فأجروا صِناعـة العربيَّـةِ مجرى العُلُومِ بحثاً ، وقطعوا النظَرَ عن التفقُّـهِ في تراكيبِ كلامِ العرَبِ ؛ إلا إن أعربوا شاهداً أو رجَّـحوا مذهباً ، من جهةِ الإقتِضاء الذِهنيِّ ، لا من جهةِ محامِلِ اللسانِ وتراكيبِهِ . فأصبحت صناعةُ العربيَّـةِ كأنها من جملَةِ قوانينِ المنطقِ العَقليَّةِ أو الجَدَلِ ، وبعُدت عن مناحي اللسانِ ومَلَكَتِه وأفادَ ذلك حَمَلَتهـا في هذه الأمصارِ وآفاقِها البعدُ عن المَلَكَة بالكليِّـةِ ، وكأنَّـهم لا ينظرونَ في كلامِ العَرَبِ . وما ذلك إلا لعُدولهـم عن البحثِ في شواهـد اللسـانِ وتراكيبـهِ وتمييز أساليبـهِ ، وغَفْلَتِهِمْ عن المِرَانِ في ذلك للمتعلِّـمِ ، فهو أحسنُ ما تُفيدُهُ المَلَكةُ في اللسـانِ . وتلك القوانينُ إنما هي وسائلُ للتعليمِ ؛ لكنهم أجرَوها على غيرِ ما قُصِدَ بهـا ، وأصاروها علماً بحتاً وبعُدوا عن ثمرتها . وتعلَّـمُ ما قرَّرنـاهُ في هذا البـابِ ، أنَّ

حصولَ ملكةِ اللسانِ العربيِّ إنما هو بكثرةِ الحِفظِ من كلامِ العَرَبِ ، حتى يرتسِمَ في خيالِهِ المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبَهُم فينسِجُ هو عليه . ويتنزَّلُ بذلكَ منزِلَةَ من نشأ معهم وخالَطَ عباراتِهِم في كلامِهِم ، حتى حصلت له الملكةُ المستقِرَّةُ في العبارَةِ عن المقاصِدِ على نحوِ كلامِهِم . والله مقدِّرُ الأُمورِ كلِّـها ، واللهُ أعلمُ بالغيبِ .

(المقدمة صفحة1081 -1084)

- 16 -

في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان انها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم

إعلم أنَّ لفظةَ الذوق يتداولُها المعتنونَ بفنونِ البيانِ ، ومعناها حصولُ ملكةِ البَلاَغةِ لِلّسـانِ . وقد مرَّ تفسيرُ البلاغَةِ ، وأنَّـها مطابقَةُ الكلامِ للمعنى من جميعِ وجوهِهِ ، بخواصَّ تقعُ للتراكيبِ في إفادةِ ذلك. فالمتكلِّـمُ بلسانِ العربِ والبليغُ فيهِ يتحرَّى الهيئةَ المفيدةَ لذلك ، على أساليبِ العربِ وأنحاءِ مخاطباتِهم ، وينظِمُ الكلامَ على ذلك الوجهِ جُهْدَهُ ؛ فإذا اتَّـصَلَـتْ معاناتُـه لذلك بمخالطَـةِ كلامِ العـربِ ، حصلت له المَلَكَةُ في نظمِ الكلام على ذلك الوجهِ ، وسهُلَ عليهِ أمرُ التركيبِ ، حتى لا يكاد ينحو فيهِ غيرَ منحى البلاغَةِ التي للعربِ ؛ وإن سمع تركيباً غيرَ جارٍ على ذلك المنحى ، مجَّـهُ ونبا عنهُ سمعهُ بأدنـى فكرٍ ، بل وبغـيرِ فكرٍ ، إلا بمـا استفـادهُ من حصولِ هذه الملكة . فإنَّ الملكاتِ إذا استقرَّت ورسخَتْ في محالِّـها ظهرت كأنهـا طبيعةٌ وجِبلَّـةٌ لذلك المحلِّ . ولذلك يَظُنُّ كثيرٌ من المغفَّـلينَ ممـن لم يعـرف شأنَ الملكاتِ ؛ أنَّ الصوابَ للعربِ في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمرٌ طبيعيٌّ . ويقولُ : كانت العربُ تنطقُ بالطبعِ وليس كذلك ، وإنما هي ملكةٌ لسانيَّـةٌ في نظمِ الكلامِ تمكنت ورسخت فظهرت في باديء الرأي أنها جِبِلَّـةٌ وطبعٌ .

وهذه الملكةُ كما تقدَّمَ إنما تحصُلُ بممارسَةِ كلامِ العربِ وتكرُّرِهِ على السمعِ والتفطُّـنِ لخواصِّ تراكيبِهِ ، وليست تحصُلُ بمعرفةِ القوانينِ العلميَّـةِ في ذلك التي استنبطها أهلُ صِنَاعَةِ البيانِ فإنَّ هذه القوانين إنما تُفيدُ علماً بذلك اللسانِ ، ولا تُفيدُ حصولَ الملكةِ بالفِعلِ في محلِّـها ، وقد مرَّ ذلك . وإذا تقرَّرَ ذلك فملكةُ البلاغَةِ في اللسانِ تُهدي البليغَ إلى وُجودِ النظمِ وحُسنِ التركيبِ الموافقِ لتراكيبِ العَرَبِ في لغتِهم ونظمِ كلامِهم . ولو رَامَ صاحِبُ هذه المَلَكَةِ حَيْداً عن هذه السَبيلِ المعيَّـنةِ والتراكيبِ المخصوصَةِ ، لما قَدِرَ عليهِ ولا وافقَهُ عليه لسانُهُ ، لأنَّـه لا يعتادُهُ ولا تهديهِ إليهِ ملكتُهُ الراسِخَةُ عنده . وإذا عُرِضَ عليه الكلامُ ، حائداً عن أُسلوبِ العربِ

وبلاغَتِهِم في نظمِ كلامِهِم أعرَضَ عنهُ ومجَّهُ ، وعلمَ أنَّهُ ليسَ من كلامِ العربِ الذينَ مارسَ كلامَهُم . وإنما يعجَزُ عن الاحتجاجِ بذلك ، كما تصنعُ أهلُ القوانينِ النحويَّةِ والبيانيَّةِ ؛ فإنَّ ذلك استدلالٌ بما حَصَلَ من القوانينِ المفادَةِ بالاستقراء . وهذا أمرٌ وِجْدَانيٌّ حاصِلٌ بممارسَةِ كلامِ العربِ ، حتى يصيرَ كواحدٍ منهم .

ومثالُهُ : لو فرضنا صبياً من صبيانِهِم ، نشأ وربِيَ في جيلِهم ، فإنه يتعلَّمُ لُغَتَهُم ويحْكِمُ شأنَ الإعرابِ والبلاغَةِ فيها ، حتى يستولِيَ على غايتها . وليسَ من العلمِ القانونيِّ في شيءٍ ، وإنما هو بحصولِ هذه المَلَكةِ في لسانه ونُطقهِ . وكذلك تحصُلُ هذه الملكةُ لمن بعد ذلك الجيلِ ، بحفظِ كلامِهِم وأشعارِهِم وخُطَبِهِم والمداوَمَةِ على ذلك ، بحيثُ يُحصِّلُ المَلَكةَ ويصيرُ كواحدٍ ممن نشأ في جيلِهِم وربيَ بين أحيائهم . والقوانينُ بمعزلٍ عن هذا . واستُعيرَ لهذه الملكةِ ، عندما تَرسُخُ وتستقِرُّ ، اسمُ الذوقِ الذي اصطلَحَ عليهِ أهلُ صناعَةِ البيانِ والذوق إنما هو موضوعٌ لإدراكِ الطُّعومِ . لكن لَمّا كان محلُّ هذه الملكةِ في اللسانِ ، من حيث النُّطْقُ بالكلامِ ، كما هو محلٌّ لإدراكِ الطُّعُومِ ، استُعيرَ لها اسمُهُ . وأيضاً فهو وجدانيٌّ اللسانِ ، كما أنَّ الطعومَ محسوسةٌ له ؛ فقيلَ له ذوقٌ . وإذا تبيَّنَ لك ذلك علمتَ منه أنَّ الأعاجِمَ الداخلينَ في اللسانِ العربيِّ الطارئينَ عليه المضطرِّينَ إلى النُّطقِ بهِ لمخالطَةِ أهلِهِ ، كالفُرسِ والرومِ والتُّركِ بالمشرقِ وكالبربَرِ بالمغرِبِ ، فإنه لا يحصُلُ لهم هذا الذوقُ لقصورِ حَظِّهِمْ في هذه المَلَكةِ التي قرَّرنا أمرَها ؛ لأنَّ قُصاراهم بعد طائفةٍ من العمرِ وسَبْقِ ملَكةٍ أُخرى إلى اللسانِ ، وهي لغاتُهُم ، أن يعتَنوا بما يتداوَلُهُ أهلُ المصرِ بينهم في المحاوَرَةِ من مُفردٍ ومركَّبٍ ، لما يُضطرُّونَ إليه من ذلك . وهذه الملكةُ قد ذهبت لأهلِ الأمصارِ ، وبَعُدوا عنها كما تقدَّمَ . وإنما لهم في ذلك ملكةٌ أُخرى وليست هي ملكةُ اللسانِ المطلوبةِ . ومن عرفَ أحكامَ تلكَ الملكَةِ من القوانينِ المسطَّرَةِ في الكتبِ ، فليسَ من تحصيلِ المَلَكةِ في شيءٍ ، إنما حصَّلَ أحكامَها كما عرفتَ . وإنما تحصُلُ هذه الملكةُ بالممارسَةِ والاعتيادِ والتكرُّرِ لكَلامِ العربِ . فإن عرضَ لك ما تسمعُهُ ، من أن سيبويه والفارسيَّ والزمخشريَّ وأمثالَهُم من فُرسانِ الكَلامِ كانوا أعجاماً مع حصولِ هذه الملكَةِ لهم ، فاعلم أنَّ أولئكَ القومَ الذينَ تسمع عنهم إنما كانوا عَجَماً في نَسَبِهم فقط . أما المربى والنشأةُ

فكانت بينَ أهلِ هذه المَلَكَةِ من العربِ ومن تعلَّمها منهم ، فاستولوا بذلكَ من الكلامِ على غايَةٍ لا وراءَها ؛ وكأنَّهم في أوَّلِ نشأتهم بمنزلةِ الأصاغر من العربِ الذينَ نشأوا في أجيالهم ، حتى أدركوا كنهَ اللغةِ وصاروا من أهلِها . فهم وإن كانوا عجماً في النَّسَبِ فليسوا بأعجامٍ في اللغةِ والكلامِ ، لأنهم أدركوا المِلَّةَ في عُنفوانِها واللغةَ في شبابها ، ولم تذهَبْ آثارُ الملكةِ منها ولا من أهلِ الأمصارِ ، ثم عكفوا على الممارسةِ والمدارسةِ لكَلامِ العربِ حتى استولوا على غايتِهِ .

واليومَ الواحِدُ من العَجَمِ ، إذا خالَطَ أهلَ اللسانِ العربيِّ بالأمصارِ ، فأوَّلُ ما يجدُ تلك الملكةَ المقصودَةَ من اللسانِ العربيِّ ممتحِيةَ الآثارِ . ويجدُ ملكَتُهم الخاصَّةَ بهم مَلَكةً أخرى مخالِفَةً لمَلَكَةِ اللسانِ العربيِّ . ثم إذا فرضنا أنه أقبلَ على الممارسَةِ لكلامِ العربِ وأشعارِهِم بالمدارَسَةِ والحِفظِ ليستفيدَ تحصيلَها ، فقلَّ أن يحصَلَ له ما قدَّمناه من أنَّ الملكةَ إذا سبقتها ملكةٌ أخرى في المحلِّ ، فلا تحصُلُ إلا ناقصةً مخدوشةً . وإن فرضنا عَجَمِيّاً في النسبِ سَلِمَ من مخالطةِ اللسانِ العَجَميِّ بالكليَّةِ ، وذهب إلى تعلُّم هذه المَلَكةِ بالحفظ والمدارَسَة ؛ فربما يحصُلُ له ذلك ، لكنَّهُ من الندورِ بحيثُ لا يخفى عليكَ بما تقرَّرَ . وربما يدَّعي كثيرٌ ممن ينظُرُ في هذه القوانينِ البيانيَّةِ حصولَ هذا الذوقِ له بها ، وهو غلطٌ أو مغالَطَةٌ ؛ وإنما حصلَتْ له الملكةُ إن حصلت في تلكَ القوانينِ البيانيَّةِ ، وليست من مَلَكةِ العبارةِ في شيء . واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم .

(المقدمة صفحة1085 -1088)

في أنّ أهل الأمصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسببُ في ذلك ما يسبُقُ إلى المتعلِّم ، من حصولِ مَلَكَةٍ مُنافيَةٍ للمَلَكَةِ المطلوبَةِ ، بما سبقَ إليهِ من اللسانِ الحَضرَيِّ الذي أفادَتْهُ العُجْمَةُ ، حتى نزلَ بها اللسانُ عن مَلَكَتِهِ الأُولى إلى مَلَكَةٍ أُخرى هي لغةُ الحضرِ لهذا العهدِ . ولهذا نجدُ المعلّمينَ يذهبونَ إلى المسابقَةِ بتعليمِ اللسانِ للوُلدانِ . وتعتقِدُ النُحاةُ أنَّ هذه المسابقَةَ بصِنَاعتِهم ، وليسَ كذلك ، وإنما هي بتعليمِ هذه المَلَكةِ بمخالطَةِ اللسانِ وكلامِ العربِ . نعم صِنَاعَةُ النحوِ أقربُ إلى مخالطةِ ذلك . وما كانَ من لغاتِ أهلِ الأمصارِ أعرقَ في العُجمةِ وأبعدَ عن لسانِ مُضَرَ قَصَّرَ بصاحبِهِ عن تعلُّم اللغةِ المضرَيَّةِ وحصولِ ملكَتها لتمكُّنِ المنافاةِ حينئذٍ . واعتبر ذلك في أهلِ الأمصارِ .

فأهلُ إفريقيَّةَ والمغربِ لما كانوا أعرقَ في العُجمةِ وأبعدَ عن اللسانِ الأوَّلِ ، كان لهم قصورٌ تامٌّ في تحصيلِ ملكتِهِ بالتعليمِ .

(المقدمة صفحة 1098)

في أنّه لا يتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل

والسَّبَبُ في ذلك أنه كما بيَّناهُ ملَكةٌ في اللسانِ ؛ فإذا سَبَقَتْ إلى محلِّهِ مَلَكةٌ أخرى ، قَصَّرَتْ بالمحلِّ عن تمام المَلَكَةِ اللاحقَةِ . لأنَّ قبولَ المَلَكات وحصولَها للطبائعِ التي على الفِطْرَةِ الأُولى أسهلُ وأيسرُ . وإذا تقدَّمتها ملَكَةٌ أُخرى كانت منازِعَةً لها في المدَّةِ القابلَةِ وعائقةً عن سرعَةِ القَبولِ ، فوقعت المنافاةُ وتعذَّرَ التمامُ في المَلَكةِ . وهذا موجودٌ في الملكاتِ الصِناعيَّةِ كلِّها على الاطلاقِ . وقد برهنَّا عليهِ في موضعهِ بنحوٍ من هذا البرهانِ . فاعتَبِرْ مثلَهُ في اللُغاتِ ، فإنها ملكاتُ اللسانِ ، وهي بمنزلَةِ الصِناعةِ . وانظر من تقدَّمَ له شيءٌ من العُجمةِ ، كيف يكونُ قاصراً في اللسانِ العربيِّ أبداً . فالأعجميُّ الذي سبقت له اللغةُ الفارسيَّةُ لا يستولي على مَلَكةِ اللسانِ العربيِّ ، ولا يزالُ قاصراً فيهِ ولو تعلَّمَهُ وعلَّمَهُ . وكذا البربَريُّ والروميُّ الإفرنجيُّ قلَّ أن تجدَ أحداً منهم مُحْكِماً لَمَلكةِ اللسانِ العربيِّ . وما ذلك إلا لما سبقَ إلى ألسِنَتِهِم من مَلَكةِ اللسانِ الآخرِ ، حتى إنَّ طالِبَ العلمِ من أهلِ هذه الألسُنِ إذا طلبه بين أهلِ اللسانِ العربيِّ ومن كتبِهِم جاءَ مقَصِّراً في معارفِهِ عن الغايةِ والتحصيلِ ، وما أتى إلاَّ من قبلِ اللسانِ . وقد تقدَّم لك من قبلُ أنَّ الألسُنَ واللغات شبيهةٌ بالصنائعِ . وقد تقدَّم لك أنَّ الصنائعَ وملكاتِها لا تزدحِمُ . وإن من سبقَتْ له إجادةٌ في صنَاعَةٍ فقلَّ أن يُجيدَ أُخرى أو يَستوليَ فيها على الغـايَةِ . واللهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْلَمون .

(المقدمة صفحة1096 -1097)

- 19 -

في أنّ صناعة النظم والنثر انما هي في الألفاظ لا في المعاني

إعلم أنَّ صناعَةَ الكلامِ نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظِ لا في المعاني ، وإنما المَعاني تَبَعٌ لها وهي أصلٌ . فالصانِعُ الذي يحاوِلُ مَلَكةَ الكلامِ في النظمِ والنَّثرِ ، إنما يحُاوِلُها في الألفاظِ بحفظِ أمثالها من كلامِ العَرَبِ ، ليكثُرَ استعمالُهُ وجريُهُ على لسانِهِ ، حتى تستقِرَّ له المَلَكةُ في لسانِ مُضَرَ ، ويتخلَّصَ من العُجمَةِ التي رَبِيَ عليها جيلِهِ ، ويفرِضَ نفسَهُ ، مثل وليدٍ ينشأُ في جيلِ العَرَبِ ويُلقَّنُ لَغَتَهُم كما يُلقَّنُها الصَبيُّ ، حتى يصيرَ كأنَّهُ واحدٌ منهم في لسانِهِم . وذلك أنا قدَّمنا أنَّ لِلّسان مَلَكةً من المَلَكاتِ في النُطقِ يحاوِلُ تحصيلَها بتَكرارِها على اللسانِ حتى تحصُلَ شأن المَلَكات ، والذي في اللسانِ والنُطقِ إنما هو الألفاظُ ، وأمَّا المَعاني فهي في الضمائِرِ . وأيضاً المعَاني موجودَةٌ عند كلٍّ واحدٍ وفي طوعِ كلِّ فِكرٍ منها ما يشاءُ ويرضى ؛ فلا تحتاجُ إلى تكلُّفِ صناعةٍ في تأليفِها . وتأليفُ الكلامِ للعِبارَةِ عنها هو المُحتاجُ للصناعَةِ كما قُلناهُ وهو بمثابَةِ القوالبِ للمعَاني . فكما أنَّ الأواني التي يُغترَفُ بها الماءُ من البحرِ منها آنيةُ الذَهَبِ والفِضَّةِ والصَدَفِ والزُجَاجِ والخَزَفِ ، والماءُ واحدٌ في نفسِه . وتختلِفُ الجودَةُ في الأواني المملوءَةِ بالماء باختلافِ جنسها لا باختلافِ الماء . كذلك جودَةُ اللُّغَةِ وبلاغتُها في الاسْتِعْمالِ تختلِفُ باختلافِ طبقاتِ الكلامِ في تأليفِهِ ، باعتبارِ تطبيقِهِ على المقاصِدِ . والمَعَاني واحدةٌ في نفسِها ؛ وإنما الجاهِلُ بتأليفِ الكلامِ وأساليبِهِ ، على مُقتضى مَلَكةِ اللسانِ ، إذا حاوَلَ العبارَةَ عن مقصودِهِ ، ولم يُحْسِنْ ، بمثابَةِ المُقعَدِ ، الذي يرومُ النهوضَ ولا يستطيعُهُ ، لفقدانِ القُدرَةِ عليه . واللهُ يعلِّمُكُم ما لم تكونوا تعلمونَ .

(المقدمة صفحة 1110 -1111)

- 20 -

في أنّ حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدَّمنا أنه لا بُدَّ من كثرةَ الحِفْظِ ، لمن يرومُ تَعَلُّمَ اللسانِ العَربيِّ ، وعلى قَدَرِ جودَةِ المحفوظِ وطبقتِهِ في جنسِهِ وكثرتِهِ من قِلَّتِهِ ، تكونُ جودَةُ المَلَكَةِ الحاصِلَةِ عنه للحافِظِ . فمن كَانَ محفوظُهُ من أشعَارِ العَرَبِ الإسْلاميِّين شعْرَ حبيبٍ أو العِتابيِّ أو ابنِ المُعْتَزِّ أو ابنِ هانىءٍ أو الشريفِ الرضيِّ ، أو رسائلَ ابنِ المقفَّعِ أو سهلِ ابنِ هارونَ أو ابنِ الزيَّاتِ أو البديعِ أو الصابىءِ ؛ تكونُ ملكتُهُ أجوَدَ وأعلى مقاماً ورُتْبَةً في البلاَغَةِ ، ممن يحفظُ أشعارَ المتأخِّرين مثل شِعْر ابنِ سهلٍ أو ابنِ النَّبيهِ أو تَرَسُّلَ البَيْسانيِّ أو العمادِ الأصبهانيِّ ، لنزول طبقةِ هؤلاءِ عن أولئكَ . يظهرُ ذلك للبَصيرِ الناقِدِ صاحِبِ الذوقِ . وعلى مقدارِ جودةِ المحفوظِ أو المسموعِ ، تكونُ جودةُ الاستعمالِ من بعده ، ثم إجادةُ الملكةِ من بعدهما . فبارتقاءِ المحفوظِ في طبقتِهِ من الكلامِ ، ترتقي المَلَكَةُ الحاصِلَةُ لأنَّ الطَّبْعَ إنما ينسجُ على مِنوالها ، وتنمو قُوى المَلَكَةِ بِتَغذِيَتِهَا . وذلك أنَّ النفسَ ، وإن كانت في جِبِلَّتها واحدةً بالنوعِ ، فهي تختلفُ في البشرِ بالقوَّةِ والضُّعْفِ في الإدراكاتِ . واختلافُها إنما هو باختلافِ ما يردُ عليها من الإدراكاتِ والمَلَكَاتِ والألـوانِ التـي تُكَيِّـفُهـا من خارجٍ . فبهـذه يَتِمُّ وجودُها ، وتخرُجُ من القوَّةِ إلى الفِعْلِ صورتُها . والملكاتُ التي تحصُلُ لها إنما تحصُلُ على التدريجِ كما قدَّمناهُ . فالملكةُ الشعريَّـةُ تنشأ بحفظِ الشعرِ ، ومَلَـكَةُ الكتابَـةِ بحفظِ الأسْجاعِ والترسيلِ ، والعلميَّـةُ بمخالَطَةِ العُلُـومِ والإدراكاتِ والأبحـاثِ والأنظار ، والفقهيَّـةُ بمخالَطَةِ الفِقْهِ وتنظيرِ المسائلِ وتفريعِها وتخريجِ الفروعِ على الأصولِ ، والتصوُّفيَّـةُ الربـانيَّـةُ بالعِبـاداتِ والأذكارِ وتعـطيلِ الحـواسِّ الظاهـرةِ بالخلوةِ والانفرادِ عن الخَلْقِ ما استطاعَ ،حتى تحصُلَ له مَلَكَةُ الرجوعِ الى حِسِّـهِ الباطِنِ وروحِهِ ، وينقلبُ ربّانياً وكذا سائرُها . وللنفسِ في كل واحدٍ منها لونٌ تتكيفُ به ، وعلى حَسَبِ ما نشأت المَلَكَةُ عليه من جودَةٍ أو رداءَةٍ تكونُ تلك المَلَكَةُ في نفسها ، فمَلَكَةُ البَلاَغَةِ العاليَةِ الطبقةِ في جنسِها إنما تحصُلُ بحفظِ العالي في طبقتِهِ من الكلامِ ، ولهذا كان الفُقَهَاءُ وأهلُ العُلُومِ كلُّـهم قاصرينَ في البلاغَةِ ، وما ذلك إلا

لما يسبقُ إلى محفوظِهِم ، ويمتلىءُ به من القوانينِ العلميَّةِ والعبَاراتِ الفقهيَّةِ الخارجَةِ عن أسلوبِ البلاغَةِ والنازلَةِ عن الطبقةِ ، لأنَّ العبارات عن القوانينِ والعُلُوم لا حظَّ لها في البلاغَةِ ، فإذا سبقَ ذلك المحفوظُ إلى الفكرِ وكثُرَ وتلوَّنَتْ به النفسُ جاءَت المَلَكةُ الناشِئةُ عنه في غايَةِ القُصورِ وانحرفت عباراتُهُ عن أساليبِ العربِ في كلامِهِم . وهكذا نجدُ شِعْرَ الفُقَهاءِ والنُّحاةِ والمتكلِّمينَ والنُظَّارِ وغيرهم ممن لم يمتلىءْ من حِفْظِ النقيِّ الحرِّ من كلامِ العربِ .

أخبرني صاحِبُنا الفاضِلُ أبو القاسِم بنُ رِضوانَ كاتِبُ العلامَةِ بالدولَةِ المَرِيْنِيَّةِ قال : ذاكرتُ يوماً صاحبنا أبا العباسِ بنَ شُعَيبٍ وخُدِشَ وَجْهُ المَلَكةِ التي استدعيتُ لها بالمحفوظِ الجيِّدِ من القرآنِ والحَديثِ وكلامِ العَرَبِ ، فَعَاقَ القريحَةَ عن بلوغِها . فنظَرَ إليَّ ساعَةً متعجِّباً ثم قال : للهِ أنتَ ، وهل يقولُ هذا إلا مثلك ؟ .

ويظهرُ لك من هذا الفصلِ ، وما تقرَّرَ فيه سرٌّ آخرُ ، وهو إعطاءُ السَبَبِ في أنَّ كلامَ الاسلاميينَ من العربِ أعلى طَبَقَةً في البلاغَةِ وأذواقِها من كلامِ الجاهِلِيَّةِ ، في منثورِهِم ومنظومِهِم . فإنَّا نَجِدُ شعرَ حسَّانِ بنِ ثابِتٍ وعُمَرَ بن أبي ربيعةَ والحطيئةِ وجريرٍ والفرزدقِ ونُصَيْبٍ وغيلانَ ذي الرُّمَّةِ والأحوَصِ وبشَّارٍ ، ثم كلامَ السَلَفِ من العربِ في الدولةِ الأمويَّةِ وصدراً من الدولةِ العبَّاسيَّةِ ، في خُطَبِهِم وترسيلِهِم ومحاوراتِهِم للمُلوكِ أرفعَ طبقةً في البلاغَةِ بكثيرٍ من شِعْرِ النابِغَةِ وعنتَرَةَ وابنِ كُلثومٍ وزُهَيرٍ وعَلْقَمَةَ بنِ عَبْدَةَ وطرفَةَ بنِ العَبْدِ ، ومن كلامِ الجاهِلِيَّةِ في منثورِهم ومحاوراتِهم . والطبعُ السليمُ والذوقُ الصحيحُ شاهدانِ بذلك للناقِدِ البصيرِ بالبلاغَةِ .

والسبَبُ في ذلك أنَّ هؤلاءِ الذينَ أدركوا الإسلامَ سمِعوا الطبَقَةَ العاليَةَ من الكلامِ في القرآنِ والحديثِ ، اللذَيْنِ عَجِزَ البشرُ عن الإتيانِ بمثليهما ، لكونها وَلَجَتْ في قلوبهم ونشأتْ على أساليبها نفوسُهُم ؛ فنهضَتْ طباعُهُم وارتقَت ملكاتُهُم في البلاغَةِ عن مَلَكاتِ مَنْ قَبلَهُم من أهلِ الجاهِلِيَّةِ ، ممن لم يسمَعْ هذه الطبَقَةَ ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامُهُم في نظمِهِم ونثرِهِم أحسنَ ديباجَةً وأصفى رونَقاً من

أولئكَ ، وأرصفَ مبنىً وأعدَلَ تثقيفاً بما استفادوهُ من الكلامِ العالي الطبقَةِ . وتأمَّـلْ ذلك يشهدْ لك به ذوقُكَ إن كنتَ من أهلِ الذَّوْقِ والتبصُّـرِ بالبلاغةِ .

[. . . .]

(المقدمة صفحة1112 -1116)

مراجع البحث

ابن خلدون ، عبد الرحمن المقدمة . بيروت : دار الكتاب اللبناني 1961 .

زكريا ، ميشال (1980) **الألسنية (علم اللغة الحديث) : المبادىء والاعلام** بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

زكريا ، ميشال (1982) **الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية . (1 - النظرية الألسنية)** . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

زكريا ، ميشال (1984 - أ) **الألسنية (علم اللغة الحديث) : قراءات تمهيدية** بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

زكريا ، ميشال (1984 - ب) **مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة** بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .

عيد ، محمد (1979) **الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون** القاهرة : عالم الكتب .

الموسى . نهاد (1980) **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث** بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

B. Bernstein (1971- 1974) **Class, Codes and control** 3 vol. London, Routledge and Kegan Paul.

Bloch and Triger (1942) **Outline of Linguistics Analysis** Baltimore: Linguistic Society of America: Waverly Press.

L. Bloomfied (1935) **Language** London Allen and Unwin .

G. Boas: **Les données linguistiques de la Muqaddima d'Ibn Haldun** Mémoire Paris.

N. Chomsky (1957) **Syntactic Structures** The Hague Mouton trad française Ed Seuil 1969.

N. Chomsky (1965) **Aspects of the theory of Syntax.** Cambridge Mass: The M.I.T Press trad. française Ed. Seuil Paris 1970.

N. Chomsky (1966) **Cartesian Linguistics** New York and London: Harper and Row trad. francaise Ed. Seuil 1969.

N. Chomsky (1967) The formal Nature of Language Appendix to E.H. lenneberg **Biological Fondations of language** trad française des N. Chomsky (1966).

N. Chomsky (1968) **Language and Mind** New York and London: Harcourt and Brace trad. française Ed. Payot 1970.

N. Comsky (1975) **Reflexions on Language.** New York: Pantheon trad.fr Ed. Maspero 1977.

N. Chomsky (1977) **Essays on form and Interpretation** Elsevier North Holland Inc trad. française Ed. Seuil 1980.

Dorosewski (1973) Quelques remarques sur les rapports de la sociologie et de la linguistique **Journal de Psychologie** 1933.

R. A Halle (1968) **An Essay on Language.** Philadelphia and New York Chilton Books.

R.Jakobson (1963) **Essais de linguistique générale** trad française Ed de Minuit.

J. Kristeva (1969) **Le langage cet inconnu.** Paris Seuil.

W. Labov (1970) The logic of Non-standard English in «**Language and Poverty** Williams F. ed Markham Press.

G. C. Lepschy (1966) **La linguistique structurale** trad. française Paris Payot.

M. Leroy (1963) **Les grands courants de la linguistique moderne.** Bruxelles 2em Ed. 1971.

A. Martinet (1960) **Eléments de linguistique générale** Paris: Armand Collin.

A. Meillet (1952) **Linguistique historique** Klincsieck Vol. III.

G. Mounin (1967) **Histoire de la linguistique des origines au XXᵉ siècle**. Paris P.U.F.

R. M. Robins (1967. **A short History of linguistics** Longman. Green and co. Ltd. London and Harlow trad française Ed Seuil 1976.

F. De Saussure (1916. **Cours de linguistique générale** Pubné par Ch. Bally et A Sechehay Paris. : Payot 1969.

E. Sapir (1921) **Language** New York and Harcourt Brace.

M. Zakaria (1974) **Essai d'une étude générative de l arabe: Syntaxe.** Beyrouth 1984.

المحتويات

الموضوع | الصفحة

1986/1/217

هذا الكتاب

ليس من شأن هذه الدراسة أن تبحث في الآراء اللغوية لابن خلدون بصورة عامة ، ولا أن تبحث في أصالة تفكيره اللغوي أو في الآراء الجديدة التي اتى بها في هذا المجال بالنسبة الى الفكر اللغوي العربي. كما ليس من شأنها ، بالتالي ، اظهار ابن خلدون في مظهر العالم اللغوي أو الرائد الألسني الذي حلّل قضايا اللغة ومسائلها كما يُحللها الآن علم الألسنية . لأنّ ذلك ، في الواقع ، يبعدنا عن الحقيقة الموضوعية في مجال تفهم الاهتمامات التي وجّهت كتاباته . بل تهدف هذه الدراسة الى تبيان أنّ ابن خلدون قد اتى ، خلال عرضه الموجز لما اسماه « بعلوم اللسان العربي » ، بآراء لغوية متعمقة ومتطورة يجدر بنا التوقف عندها ملياً ، لنحللها ونقارن بينها وبين بعض الآراء المعمول بها ، حالياً ، في مجال علم الألسنية .

تتبّع هذه الدراسة مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون وتركز الاهتمام على بعض المسائل اللغوية التي هي ، في يقيننا ، متطورة وينبغي النظر فيها مجدّداً بغيّة الإستفادة منها في حقل الدراسات اللغوية المتعمقة . وهذه المسائل ، بالذات ، تثبت ، بصورة واضحة وجليّة ، أن الجانب اللغوي في فكر ابن خلدون يرتدي اهمية ملحوظة مثله مثل الجانب الاجتماعي والسياسي . فابن خلدون قد انفرد عن غيره بالنظرة الى اللغة من حيث انها ملكة لسانية . ومفهوم الملكة اللسانية ، كما يتوسّع فيه ابن خلدون ، مفهوم حيّ معاصر يقارب مفهوم الكفاية اللغوية الذي يركز اهتمامه عليه الألسني الاميركي نوام تشومسكي في نظريته الألسنية التوليدية والتحويلية .

الناشر

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع